الفصل الأول

مبادئ إسلامية

نظرة الإسلام العامة إلى الوجود

للإسلام نظرته الخاصة إلى الوجود والحياة ، وتصوره المستقل الشامل للحقيقة الإلهية والكون والإنسان . وعلى أساس هذه النظرة ، ومن خلال هذا التصور يستطيع المرء أن يتفهم جميع المبادىء والأنظمة التي بشر بها الإسلام .

والأمر لا يختلف في كل مبدأ ونظام ، ولا يمكن أن تفهم صور الأنظمة دون التعمق في معرفة الفلسفة التي تقوم عليها هذه الأنظمة أو التصور الذي تعتمده للكون والحياة ، فالنظام الاجتماعي فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود ولمركز الإنسان فيه ، وكل نظام لا يقوم على أساس هذا التفسير هو نظام مصطنع لا يكتب له البقاء .

والتصور الإسلامي للوجود يختلف عن سائر التصورات الأخرى قديمة كانت أو حديثة ، وإذا كان يلتقي مع بعض هذه التصورات في بعض الجوانب الجزئية إلا أن الأسس التي تنبثق عنها هذه التصورات مختلفة كل الاختلاف . وهو تصور شامل لأنه يقدم نظرة عامة عن جميع عناصر الوجود ، ولا شك أن معرفته ضرورية لكل مسلم كيما يدرك طبيعة هذا الوجود وحقائقه الكبرى : حقيقة الألوهية ، وحقيقة الكون ، وحقيقة الإنسان ، إذ عن طريق هذا الإدراك

وحده يستطيع المسلم أن يحدد مركزه في هذا الوجود ويستطيع بالتالي أن يتكيف معه ويتعامل .

ومن الطبيعي أن يكون هذا التصور كله متضمناً في القرآن الكريم ، فهو الذي يحوي هذه النظرة بصورتها الحية التي تلامس الفكر والحس والوجدان ، ولا بد للمسلم أو الباحث عموماً من العودة إلى القرآن يتلمس فيه هذه النظرة الشاملة الكاملة ، متجنباً قدر الإمكان تلك التغيرات الخاصة التي تذهب بحيوية هذه النظرة وتغرقها في تيه من الانحرافات والتصورات الخاطئة .

الإنسان

إن الإنسان في عرف التصور الإسلامي قمة الكائنات الحية التي تعيش على وجه البسيطة وأفضلها وأكرمها ، لما أودعه الله فيه من مزايا وميزه من صفات ، ولما أعده من جليل الغايات التي لا تصل إلى مثلها سائر الكائنات الأخرى ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في آيات كثيرة : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ في أحسنِ تَقْويم » [1] « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » [2] ، وسبب هذا التفضيل أنه تعالى أعدّ الإنسان لخلافته على هذه الأرض ولإعمار هذا الكون بالخير والعمل الصالح [3] .

وقد فُطر الإنسان نتيجة لذلك ، الفطرة الكريمة الصالحة التي يستطيع أن يستخدمها للخير إن شاء وللشر إن شاء [4] ، فلم يفطر الإنسان على الشر بطبعه ، ولم يحمل نتائج خطيئة لم يرتكبها وظل شبحها يلاحقه طيلة حياته على ما تصور

---

١ – التين ٤

٢ – الاسراء ٧٠ .

٣ – « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. » « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

٤ – (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

بعض الديانات ، ولكنه يكسب الخير أو الشر بفعله وعمله : « قَدْ أفْلَحَ مَن زَكاها ، وقَد خابَ مَن دَسّاها » .

وقد أودع الله في الإنسان ما يستطيع به إدراك الحقائق الكبرى في الوجود [1] ، وندبه للقيام بمهمة التعرف على هذه الحقائق التي يراها الحس والعقل والوجدان في الآفاق وفي النفس وفي كل شيء [2] . ففي الأرض آيات للمؤمنين ، وفي السماء مثل هذه الآيات وأعظم : « قل انْظُرُوا ماذا في السموات والأرضِ » [3] « وفي أنفسكم » [4] ، فالفطرة الإنسانية السليمة التي تتوجه إلى الكون بروح متفتحة تكشف ما فيه من قصد وتصميم وإبداع ؛ وتنتهي إلى إدراك مكانها من هذا الوجود وتحديد كيفية سلوكها فيه . ومن خلال هذا التصور تتحدد علاقة الإنسان بالله تعالى ، تلك العلاقة التي تتمثل بالعبودية المطلقة لله وحده ، العبودية بكل متطلباتها ، وأول هذه المتطلبات الائتمار بأمره وحده « في كل أمور الحياة صغيرها وكبيرها والتوجه إليه بكل نية وكل حركة وكل كلمة وكل عمل » [5] ، والعبودية بهذا المعنى تتخذ من الله وحده إلهاً : عقيدة وعبادة وشريعة : « فلا يعتقد المسلم الألوهية لأحد غيره سبحانه ، ولا يعتقد أن العبادة تكون لغيره من خلقه ، ولا يعتقد أن الحاكمية تكون لأحد من عباده » [6]

إن علاقة العبودية هذه — وإقرار الإنسانية بها وعدم انفكاكها منها وإن جحدها البعض — علاقة قديمة قدم الخليقة ، وقد مثل القرآن لهذه العلاقة بقوله : « وإذْ أخذَ ربك من بني آدمَ من ظهورِهم ذرّيّتهم وأشهَدَهُم على أنفسهم

---

١ — (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) النحل : ٧٨ .

٢ — (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فصلت ٥٣ .

٣ — يونس ١٠١ .

٤ — الذاريات : ٢١ .

٥ — سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ص ٨٦ .

٦ — سيد قطب ، معالم في الطريق ص ١٢٣ .

ألستُ بربّكم ، قالوا بَلى شَهدنا ، أن تقولوا يومَ القيامَةِ إنّا كنا عن هذا غافلين »[1]

وحين يتقيد الإنسان بمقتضيات هذه العلاقة فإن عمله سيكون حسب مراد الله وأمره ، وسيكون في هذا حياة له ونوراً . وما يريده الله تعالى للإنسان ومن الإنسان يعرف عن طريق الرسالات التي أرسلها على أنبيائه الذين اصطفى ، وقد كان ذلك منحة من الله وهبة لعباده أعفاهم من الكدّ فيها ووفر عليهم جهدهم في هذا المجال الذي لم يوهبوا دليله ولا اداته ، فإذا اتخذوه منهاجاً لحياتهم أفلحوا وإذا تنكبوه ضلوا ، وإلى هذا المعنى أشار الأستاذ أبو الحسن الندوي بقوله: « وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره وما يهجم عليه الإنسان بعد موته . وأتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب ، وكفوهم مؤنة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مبادئهـــا ولا مقدماتها التي يبنون عليهـــا بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول . لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، ولا تعمل فيها حواسهم ، ولا يؤدي اليها نظرهم وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعاً ، وبدأوا البحث أنفاً ، وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشداً ولا خرّيتاً (خبيراً) وكانوا في ذلك أكثر ضلالاً وأشد تعباً ، وأعظم اشتغالاً بالفضول .. من رائد لم يقتنع بما أدى اليه العلم الإنساني في الجغرافية وما حدّد وضبط في الخرائط على تعاقب الأجيال ، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحاري والمسافات والحدود بنفسه ، على قصر عمره وضعف قوته وفقدان آلته ، فلم يلبث أن انقطعت به مطيته وخانته عزيمته ، فرجع بمذكرات وإشارات مختلة ، وكذلك الذين خاضوا في الإلهيات من غير بصيرة وعلى غير هدى ، جاؤوا في هذا العلم بآراء فجّة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر سانحة ونظريات مستعجلة .. فضلوا وأضلوا »[2]

---

١ – الأعراف : ١٧٢ .

٢ – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٦٨ .

أما عن علاقة الإنسان في الكون فتبدو من ناحيتين : الأولى أنه مكلف باستثماره والانتفاع به وتسخيره لمنفعته ، والثانية أنه مجال للنظر والتدبر والتأمل لا بد أن ينتهي منه للوصول إلى خالقه ومدبره . وقد شاءت إرادة الله تعالى أن تكون هاتان النظرتان متسقتين منسجمتين تؤدي كل منهما إلى الأخرى في كل متناغم متداخل ، يقول تعالى : « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » [1] « الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » [2] « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمـــره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذّكّرُون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفَمَنْ يخلُق كَمَن لا يخلُق ، أفَلاَ تذكرّون » [3] .

وانتفاع الإنسان بهذا الكون يتم عن طريق التعاون مع هذا العالم باكتشاف القوانين التي شاء الله أن يسير عليها . فكل شيء في هذا الكون مقدر تقديراً دقيقاً ، ومرسوم على صورة لا تتغير إلا بإرادته تعالى : « إنّا كلّ شيء خلَقْنَاهُ

---

١ – البقرة ١٦٤ .

٢ – البقرة ٢٢ .

٣ – النحل ١٠ – ١٧ .

بقَدر »[1] « وخَلَقَ كل شيء فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً »[2]. « وكل شيء عنده بمقدار »[3] . ومن أوضح الأدلة على وجود هذا الترتيب والنظام ، الآيات الكثيرة التي يحفل بها القرآن الكريم مؤكدة هذا المعنى في جميع جوانب هذا الكون : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون »[4]

وعلى الإنسان أن يعمل جاهداً لمعرفة الكون وما فيه حتى يتحقق له الانتفاع الكامل به ، وهو حين يفعل ذلك يستجيب لأمر إلهي : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه »[5] فإذا ما تخلف عن تحقيق هذا الأمر فقد عصى أمر الله وحقق للكافرين التقدم على المؤمنين والتسلط على المسلمين .

ولكن ما هو كُنْه هذا الإنسان الذي يتصل — من جهة — بالحقيقة الإلهية إيماناً وعبادة واتباعاً لشرعه ، ومن جهة أخرى بالكون تأملاً وتسخيراً وانتفاعاً ؟ إنه قطعاً ليس ذلك المخلوق الذي يتكون من مادة تذهب هباء بوفاته ، كما أنه ليس الكائن الروحي الذي لا يخالطه مادة فلا يعرف إلا الانقطاع إلى العبادة والتبتل لله ، كلا ، إن الإنسان في تصور الإسلام كائن يتألف من الجسم والعقل والروح ، وقد شاء الله أن يوضع في الظروف التي تحقق له الاستجابة لمطالب هذه العناصر جميعاً لأن كلاً منها يؤدي وظيفته في وجود هذا الكائن وبالتالي في إعمار هذا الكون .

ولعل هذا التأليف من مجموع هذه العناصر يتضح لنا من قوله تعالى :

---

١ — القمر ٤٩ .
٢ — الفرقان : ٢ .
٣ — الرعد ٨ .
٤ — يس ٣٧ — ٤٠ .
٥ — الملك ١٥ .

«وإذْ قالَ رَبّكَ للملائكة إنّي خالقٌ بَشراً من طين ، فإذا سويتُه ونَفَخْتُ فيه من روحي فقَعُوا لَهُ ساجِدين»[1] فالإنسان الأول يشارك الحيوان أو الكائنات الحية الأخرى بالنوازع الفطرية والشهوات وإحساسات الجنس والجوع والعطش : «وما مِن دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» [2] ، ووجود هذا العنصر يهيء للإنسان المحافظة على ذاته ونوعه ، ولكنه يتميز عن الحيوان وسائر الكائنات الحية بالعقل الذي يعاون الإنسان في الحصول على أقرب الطرق لتحقيق الاستجابة لنوازعه الفطرية ، كما يعاونه في الرقي الحياتي ، والوصول إلى حقائق الكون الكبرى ، «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تشكرون» [3] أما الروح ، فمهمتها أن تتصل بالقوة الخفية في هذا الكون فتستلهم منها النور الذي لا تراه الحواس ولا يدركه العقل [4] وبوجود العقل والروح في الإنسان استحق أن يكون خليفة على هذه الأرض ، وتهيأ له أن يحمل هذه الأمانة العظيمة التي أشفقت منها سائر الموجودات : «إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظَلوماً جَهولاً» [5]

---

١ – سورة ص ٧١ .
٢ – الأنعام ٣٨ .
٣ – النحل ٧٨ .
٤ – محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ٨٣ .
٥ – الأحزاب ٧٢ .

الكون

إن منطلق نظرة الإسلام إلى الكون أنه بكل ما فيه من سماوات وأرضين وأفلاك وشموس ونجوم ونباتات وجبال ووهاد وكائنات حية وإنسان ، مخلوق من الله تعالى ، فهو لم يوجد نفسه ، وهو لم يكن نتيجة تطورات أو تغيرات طبيعية فيه ، وهو لم يوجد صدفة ، وإنما خلقه الله وقصد إيجاده على هذا النحو المعين .

والكون بمعنى الطبيعة لم يخلق عبثاً دون غاية أو هدف ، وإن أهم أهدافه أن يكون ميداناً للنشاط الإنساني ، يستخدم فيه الإنسان طاقاته وإمكانياته ويسخره لمنفعته ، هذه المنفعة التي ستؤول في النهاية إلى تحقيق عبادة الله وقيام شريعته في المجتمع البشري ، ويستطيع الباحث أن يدرك هذا المعنى من استعراض أي آية من آيات القرآن التي تتحدث عن الكون وسائر المخلوقات فيه ، وكيف يرتبط الخلق دائماً بالتسخير لمنفعة الإنسان بقول الله تعالى : «إنّ اللهَ فالقِ الحب والنوى يخرج الحيّ من الميت ، ومخرج الميت من الحيّ ، ذلكم الله فأنّى تؤفكون ، فالقِ الإصباح ، وجعل الليل سَكَناً ، والشمس والقمر حُسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرٌ ومستودعٌ ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خَضِراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قِنوانٌ

دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتونَ والرمانَ مشتبهاً وغيرَ متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون» [1]

ثم إن الكون يسير على قواعد ثابتة مستمرة وهذا ما يسهل انتفاع الإنسان به ، «وحوادثه مرتبط بعضها ببعض ما بين نظام سابق ولاحق بانتظام واطراد يدل على أنها تتبع سنناً مطردة في حدوثها وحركتها» [2] وذلك ما توحيه الآيات التالية :

«وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمرَ قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون». « وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنّا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون» [3]

« ألم ترَ أنّ الله يُزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله رُكاماً فترى الودق يخرج من خلاله» [4]

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب» [5]

ولكن إذا كانت هنالك أسباب قريبة لحوادث الكون ، وإذا كانت توجد سنن مطردة وقواعد ثابتة ، فإن مقتضى التصور الإسلامي أن يذكر الإنسان أن إرادة الله من وراء هذه الأسباب جميعاً . فلا يغتر إذا وصل إلى اكتشاف إحدى الحقائق أو توصل إلى بعض المعارف . يقول تعالى: «نحن خلقناكم فلولا تصدقون،

---

١ – الأنعام : ٩٦ – ٩٩ .
٢ – محمد المبارك : نظام الإسلام ٤٣ .
٣ – المؤمنون : ١٨ – ١٩.
٤ – النور ٤٣
٥ – الزمر : ٢١

أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدّل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلو لا تذكّرون . أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون ، إنّا لمغرمون ، بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذي تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ، أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم». [1]

وهكذا فإن الإنسان في تلمسه حقيقة الظواهر الكونية يعود دائماً إلى منطلق ثابت أكيد ينقذه من التخبط من الإحالات على أسباب غير صحيحة أحياناً وغير واقعية أحياناً كالعقل والطبيعة، أو الإحالة إلى كائنات أسطورية كما تفعل الوثنيات وكما تلبست بها كثير من الفلسفات [2] ، لأنه يردّ خيوط الكون والحياة كلها إلى يد الله ورقابته وهيمنته وسلطانه .

إن الإنسان الذي يجعل من الكون ميداناً لتأمله وتفكيره سيكون على يقين من أن معرفته به مهما كانت واسعة وشاملة فإنها لن تحيط إلا بأجزاء يسيرة منه ، فإذا أقسم الله تعالى بمواقع النجوم لافتاً نظر الإنسان إلى تأملها ودراستها فإن الإنسان سيكشف أن النجوم تصل في ضخامة العدد إلى حد لا يستطيع العقل البشري أن يتصوره لأنها تتجاوز آلاف الملايين ، وأن أحجام النجوم هائلة إلى درجة لا تستطيع مقاييسنا التي نستعملها في كوكبنا الأرضي أن تحيط بها ، وإن مقارنة سريعة يجريها بين حجم الأرض وحجم أفلاك أخرى كالشمس والجوزاء وهي لا تتجاوز حجم الأرض لتدل على صدق ما نقول ، وسيعلم الإنسان أن أبعاد النجوم والمسافات التي تفصل فيما بينها تصل إلى حد لا نستطيع أن نقدره إلا بوحدة قياسية جديدة تتناسب مع ضخامة هذه الأبعاد ، فقد اصطلح على أن تكون الثانية الضوئية وهي المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية وحدة القياس في أبعاد النجوم وحركاتها ، وإذا

---

١ – الواقعة ٥٧ – ٧٤ .

٢ – سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ١١٣ .

علمنا أن الضوء يقطع في ثانية واحدة (١٨٦) ألف ميل وعلمنا أن البعد بين بعض النجوم يصل إلى ملايين السنين الضوئية فإننا ندرك مقدار ضخامة هذا الكون وعظمته ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى بقوله : «قُل لَوْ كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفِد البحر قبل أن تنفَد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً» [١]

وإذا انتقلنا إلى الكائنات الحية فإننا نجد مصداقاً لسعة الخلق وشموله في تنوع الكائنات الحية واختلافها عن بعض ، في الأجناس والأشكال وأنماط النبات التي لا تقع تحت حصر والتي تخرج من أرض واحدة وتسقى من ماء واحد .

ويجب أن نشير هنا إلى معنيين : المعنى الأول أن التأمل الواجب في هذا الكون لا يعني مجرد النظر اليه بالعين المجردة أو لمسه بالحس القريب فحسب ، وإنما يقصد به كذلك التفكير العلمي المنظم الذي يوصل إلى معرفة سير أحداث الكون وسننه ، وإن تأمل كلمة «يتفكرون» أو«يتدبرون» أو «يعقلون» الواردة في القرآن بعد استعراض كثير من أحداث الكون ومظاهره تدل دلالة واضحة على هذا المعنى : «إنّ في خَلْقِ السموات والأرضِ واخْتلاف الليل والنهار والفُلْكِ التي تجري في البحر .. لآيات لقَومٍ يعقلُون» [٢] ، «الذينَ يذكرون الله قيَاماً وقُعُوداً وعلى جنوبهمْ ويتَفَكّرُونَ في خَلْق السموات والأرض رَبّنَا ما خَلَقْتَ هذا باطلا» [٣] .

المعنى الثاني أن ما ورد من آيات قرآنية تتحدث عن الكون بمخلوقاته المختلفة ، لا تبيح للبعض أن ينظر إلى القرآن وكأنه كتاب علوم قد قرر نظريات كونية معينة ، وقد حاول بعض المفسرين من القدماء والمحدثين أن يشرحوا القرآن شرحاً علمياً ، فعل ذلك من القدماء : الإمام الغزالي والفخر الرازي ، ومن المحدثين : طنطاوي جوهري وعبدالله فكري. وفي اعتقادنا أن مثل هذا الطريق منزلق خطر،

---

١ – الكهف : ١٠٩ .

٢ – البقرة ١٦٤ .

٣ – آل عمران ١٩١ .

فالقرآن الكريم ليس كتاباً في علم الطبيعة أو الكيمياء أو الرياضيات، وإنما أنزله الله كتاب هداية وسبيل رشاد ونظام حياة . والذي نراه أن المسلم يجب أن يفهم من هذه الآيات أنها دعوة إلى النظر في الكون وحض على التأمل والتفكير في مخلوقات الله تعالى وبديع صنعه في الكائنات، وسيترتب على هذه النظرة إدراك واعٍ بأن الله أحاط بكل شيء علماً وأن العلم اليقيني لا يكون إلا بسلطان من الله وإلهام منه .

أما أن نفسر النظريات العلمية بآيات القرآن الكريم ، فهذا لا يجوز ، لأن العلم متطور بقوانينه ونظرياته ، ولأن النظريات في أي علم من العلوم لا تثبت على حال ، فمن طبيعة التقدم العلمي تغير الآراء وتطور النظريات والقوانين . ولو أننا فسرنا النظريات العلمية التي كانت سائدة في عصر من العصور بآيات القرآن ثم تغيرت هذه النظريات لأوقعنا أنفسنا في الحرج واتهمنا الناس بالتناقض ، وهذا موقف لا يجب أن يقفه عاقل .

اللّـه

إن التصور الإسلامي للوجود يختلف عن المذاهب المادية والطبيعية الملحدة، أي تلك المذاهب التي لا تعترف بما وراء المادة ولا تؤمن بغير المحسوس، وقد عرفت البشرية وما تزال تعرف فلسفات ومذاهب تقوم على عدم الاعتراف بالله . كما أن بعض الأديان – غير السماوية – تؤمن بوجود قوىً أسمى من قوة الإنسان لكنها تشرك مع الله إلهاً آخر أو اثنين ، فالديانات الفارسية تقول بوجود إلهين أحدهما يختص بالخير والآخر بالشر ، والنصرانية مع أنها تنبثق من أصل سماوي إلا أن صورتها التي عرفناها عن طريق الكنائس المختلفة تقول بالتثليث : أي بوجود آلهة ثلاثة هي الآب والابن وروح القدس ، كما أن اليهودية وهي ذات أصل سماوي أيضاً تؤمن بوجود إله واحد ، لكن صورتها التي عرفناها عن طريق أحبار اليهود تجسم الإله وتجسده حتى تجعله لا يختلف بشيء عن الإنسان .

ولعل من الواجب أن نستعرض بعض الآيات القرآنية التي وردت في الحديث عن الله أو صفاته حتى ندرك حقيقة التصور الإسلامي في موضوع الإلهية ، وحتى نميز تمييزاً واضحاً بين مفهوم الإسلام ومفهوم غيره من الأديان والفلسفات .

يقول الله تعالى :

«قُلْ هوَ اللهُ أحَد ، اللهُ الصمَد ، لم يَلِدْ ولم يُوْلَدْ ، ولم يَكُن لهُ

كُفُواً أحد» [1] .

«هُوَ الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهوَ بكُلّ شيء عَلِيم» [2]

«كُلّ شيء هالك إلا وجهه لهُ الحكْمُ وإليهِ ترجعون» [3]

«خالق كل شيء» [4] . «وكان الله على كل شيء قديراً» [5]

«ولله المَشرق والمغرب فأينما تولّوا فَثَمّ وجهُ الله» [6]

«والله بَصيرٌ بما يَعملون» [7] «لهُ الخلق والأمر» [8]

«ألا إنّه بِكُلّ شيء مُحيط» [9] «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوةَ الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون» [10] «ليس كمثله شيء» [11] «لا تُدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير» [12] . «لا معقب لحكمه» [13] «ولله يسجد مَن في السموات والأرض» [14] .

إن هذه الآيات القرآنية تشير إلى مجمل العقيدة الإلهية في الإسلام وهي أكمل عقيدة يستطيع أن يتقبلها عقل ، كما أنها أكمل عقيدة في الدين . فالآيات تشير

---

١ – الإخلاص .
٢ – الحديد ٣ .
٣ – القصص ٨٨ .
٤ – الأنعام ١٠٢ ، الرعد ١٦٢ ، الزمر ٦٢ ، غافر ٦٢ .
٥ – الأحزاب ٢٧ .
٦ – البقرة ١١٥
٧ – البقرة ٩٦ ، آل عمران ١٦٣ ، المائدة ٧١ .
٨ – الأعراف ٥٤ .
٩ – فصلت ٥٤ .
١٠ – البقرة ١٨٦ .
١١ – الشورى ١١ .
١٢ – الأنعام ١٠٣ .
١٣ – الرعد ٤١ .
١٤ – الرعد ١٥ .

إلى وجودين مختلفين كل الاختلاف : فأما الوجود الأول ، فهو : خالق واحد لا أول له ولا آخر ، قدير على كل شيء ، عليم بكل شيء ، محيط بكل شيء وليس كمثله شيء . والوجود الآخر : عالم مخلوق ، خلقه الله ، ويرجع إلى الله ويفنى كما يوجد بمشيئة الله .

فالله سبحانه وتعالى ليس قوة كامنة في الكون كما عبر بعض الفلاسفة ، لأنه وجود أزلي متميز عن الكون ، وهو سبحانه ليس الطبيعة ذاتها أو الكون ذاته ، لأن هذا تصور مادي يهدم الصورة الإسلامية الأساسية عن الوجود ، والله تعالى ليس كإله الفلاسفة علة نهائية غير مدركة ولا واعية افترضوا وجودها في العالم ، لأن مثل هذا التصور يحتاج إلى تفسير وتعليل [1] ، وهو تعالى ليس كائناً أزلياً أبدياً مطلق الكمال ولكنه لا يعنيه أن يخلق العالم أو يريد شيئا كما يزعم أرسطو ، لأن هذا يخالف أبسط المبادىء العقلية في تصور الكمال .

وقد عرض الأستاذ العقاد في كتابه «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» [2] وكتابه «الله» [3] بعض هذه التصورات المخالفة نوردها للمقارنة السريعة :

«مذهب أرسطو في الإله أنه كائن أزليّ أبديّ مطلق الكمال ، لا أول له ولا آخر ، ولا عمل له ولا إرادة مذ كان العمل طلباً لشيء ، والله غني عن كل طلب . وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال ، فلا حاجة إلى الاختيار بين صالح وغير صالح ولا بين فاضل ومفضول . وليس مما يناسب الإله في رأي أرسطو أن يبتدىء العمل في زمان لأنه أبدي سرمديّ لا يطرأ عليه طارىء يدعو إلى العمل ، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ولا جديد ولا قديم ، وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بقية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه .

---

١ – محمد المبارك : نظام الإسلام ، بحث (الله) ، والفلسفة القرآنية للعقاد ، بحث الإله .

٢ – الحقائق : ٣٣ – ٣٤ .

٣ – كتاب (الله) ١٨٨ ، وانظر سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ص ١٧١ – ١٧٢ .

«فالإله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الأولى وهي الهيولى ، ولكن هذه الهيولى قابلة للوجود يخرجها من القوة إلى الفعل شوقها إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود ، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها إنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار ».

وكان الفرس كما ذكرنا يعتقدون بالثنوية ، ويجعلون للخير إلهاً يقتصر عمله على عالم الخير والنور ، وللشر إلها تقتصر قدرته على عالم الظلام والشر . وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليقة منفصلتين ، وأن هرمز طفق في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة ؛ وأهرمان غافل عنه في قراره السحيق ، فلما نظر ذات يوم ليستطلع خبر أخيه راعَه اللمعان من جانب مملكة أخيه، فأشفق على نفسه من العاقبة ، وعلم أن النور وشيك أن ينتشر ويستفيض فلا يترك له ملاذاً يعتصم به ويضمن له البقاء ، فثار ، وثارت معه خلائق الظلام وهي شياطين الشر والفساد ، فأحبطت سعي هرمز وملأت الكون بالخبائث والأرزاء..»

أما أفلوطين أحد فلاسفة اليونان الذين يسمون بالإلهيين والذي كان له أثره الكبير على عدد من فلاسفة الإسلام وخاصة الإشراقيين ، فقد زاد فيما يراه تنزيهاً لإلهه الأحد حتى زعم أن من كمال هذا الإله أنه لا يشعر بذاته لأنه يتنزه عن ذلك الشعور ، وبديه أن هذا المذهب يقتضي وسائط متعددة لربط الصلة بين هذا الإله الأحد المطلق الصفاء وبين المخلوقات العلوية وهذه المخلوقات السفلية ولا سيما خلائق الحيوان المركب في الأجساد . وهكذا لزم أفلوطين أن يقول إن الواحد خلق العقل وإن العقل خلق الروح وإن الروح خلقت ما دونها من الموجودات على الترتيب الذي ينحدر طوراً دون طور إلى عالم الهيولى أو عالم المادة والفساد . وهكذا ينحصر عمل الإله عند أفلوطين على خلق العقل ثم تنتهي مهمته .

أما التصورات المنحرفة لبني إسرائيل فإنها ترسم صورة لإله لا تكاد تختلف عن صورة الإنسان الذي يملك قدرة كبيرة ، الإنسان الذي يغضب ويغار ويحقد

ويثأر لشخصه أو لشعبه وينتقم ويحطم ، واليك ثلاث صور من التوراة التي بين أيدي اليهود توضح لك ما نقول :

الصورة الأولى (من الإصحاح الثالث من سفر التكوين) :

«وقال الرب الإله : هوذا الإنسان قد صار كواحد منا ، عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمدّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد .. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أخذ منها».

الصورة الثانية من (السفر نفسه) :

«وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات ، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذن لأنفسهن نساء كل ما اختاروا ، فقال الرب : لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد ، لزيغانه ، هو بشر ... ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف في قلبه ، فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأني حزنت أني عملتهم».

الصورة الثالثة (من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صموئيل الثاني) :

«فجعل الرب وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد ، فمات من الشعب — من دان إلى بئر سبع — سبعون ألف رجل . وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها فندم الرب عن الشر ، فقال للملاك المهلك الشعب : كفى الآن ، رويدك».

ولم تكن التصورات الكنسية عن طبيعة المسيح وإرادته وتلبسهما باللاهوتية خيراً من التصورات اليهودية ، فقد دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير عوامل متعددة ، أهمها : تسلط مجموعة من المنافقين على شؤون الدولة الرومانية بعد أن أصبحت النصرانية دينها الرسمي ، فنقلوا جميع عقائد الوثنية الرومانية وتقاليدها إلى النصرانية حتى لقد عبر أحد مفكري الإسلام عن هذه الحالة ، بأن الروم لم

يتنصروا ولكن النصرانية تروّمَت فأخذت أخلاق الرومان وتقاليدهم وآراء الفلسفة اليونانية وعقائدها بما فيها عقيدة التثليث . ويضيف القاضي عبد الجبار الهمذاني : «وهذا التثليث الذي للنصارى قد كانت فلاسفة الروم تنحو نحوه في أن العقل والعاقل والمعقول تصير شيئا واحداً ، ويقولون هرمس المثلث» [1] .

وقد وقع بينهم انقسام شديد في تصور الألوهية ، فقالت فرقة إن الأب والابن وروح القدس صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس ، فالله بزعمهم ركب من أقانيم ثلاثة : الأب والابن (المسيح) وروح القدس ، فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس ، وتجسد في مريم إنساناً ، وولد منها في صورة يسوع .. وهكذا ..

هذا بالإضافة إلى التصورات الفاسدة الأخرى التي كانت تعج بالشرك والوثنية والأساطير والخرافات : من عبادة الأصنام ، إلى عبادة الكواكب ، إلى تقديس الملائكة ، إلى غيرها .

« إن التصور الإسلامي للألوهية هو التصور الحق الذي يدحض تصورات المشركين والفلاسفة ، وتصورات اليهود والنصارى ، ومن أخذ من هؤلاء أو أولئك من كل النحل الباطلة والطوائف الضالة . فالله تبارك وتعالى — كما وصف نفسه في كتابه الكريم — : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) فلا يقاس بخلقه سبحانه ، فإنه أعلم بنفسه وبغيره ، وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه » .

ومن هنا اختلف هذا التصور عن سائر التصورات التي قامت بالشرك أو بالوثنية . ولا يكون الكمال المطلق بغير قدرة وإنعام ، ولا تكون القدرة والإنعام بغير خلق وإبداع [2] وهكذا فإن الإنسان يتعامل مع إله حيّ خالق مريد مهيمن فعّال لما يريد « كامل الإيجابية والفاعلية ، إليه يرجع الأمر كله ،

---

١ — تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار الهمذاني ، تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، المقدمة ص ي

٢ — عباس العقاد ، الفلسفة القرآنية ١٠١ .

وإلى إرادته يرجع خلق هذا الكون ابتداء وكل انبثاقة فيه بعد ذلك وكل حركة وكل تغير وكل تطور ، ولا يتم في هذا الكون شيء إلاّ بإرادته وعلمه وتقديره وتدبيره ، وهو سبحانه مباشر بإرادته وعلمه وتدبيره لكل عبد من عباده في كل حال من أحواله ، والكل حي ولكل شيء في هذا الوجود كذلك »[1] .

إن ثبات هذا التصور في وجدان الإنسان سيترتب عليه آثار كبيرة في تكوين شخصيته وفي حياته كلها ، فستكون حياته منسجمة متسقة لا يدخلها الصراع بسبب الاعتقاد بتعدد الآلهة ، وستكون هذه الحياة مطمئنة لأنه يخضع للإله الحكيم الخبير العليم بما يصلح له أو يضر به ، وسيحرص على أن يتلمس إرادة الرب الحكيم، سواء عن طريق عقله أو عن طريق الرسالات الإلهية التي تتنزل على الإنسان بمقتضى الرعاية والعناية والتدبير .

وليس لأي مخلوق ولا لأية طائفة سلطان على الناس في عقائدهم وليس لهم صفة من صفات الربوبية : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله»، حتى الرسول نفسه ليس إلا مُبلّغاً : «فذكّر إنما أنت مذكّر لستَ عليهم بمسيطر». وعلى العموم فإن عقيدة الإسلام في الله تقدم في أتم معنى من معاني الوحدانية وأبسط أشكالها وليس يرضى الإسلام عن أي نوع من التعدد ولا أي رمز يشعر به[2] .

---

١ – سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ١٧٣ . وأنظر الآيات القرآنية : الأعراف ٥٤ ، آل عمران ٢٦ ، ٢٧ ، الأنعام ١٨ ، الرعد ٨ – ١٣ ، الأنعام ١٧ ، الشورى ٥٣ – ٥٤ ، الزمر ٤٣ ، المجادلة ٧ .

٢ – احمد أمين ، فجر الإسلام ٧٢ .

مثل إسلامية

جاء الإسلام خاتماً للأديان والرسالات الإلهية جميعاً ، فكان له أثره الكبير في تغيير قيم الأشياء والأخلاق والمُثل ، فارتفعت قيم أشياء وانخفضت قيم أخرى ، وأصبحت مقومات الحياة غيرها بالأمس ، وكان من الطبيعي أن يضم الإسلام جماع المثل العليا وحصيلة القيم السامية التي يطمح الإنسان اليها . هذه المثل تحقق خير الإنسانية وسعادتها وتكفل لها حياة مثالية مستقرة ترفع من شأن الإنسان وتكرمه وتشعره أبداً أنه مستخلف على هذه الأرض مكرّم على سائر الكائنات .

ودون أن ندخل في مناقشة فلسفية لمفهوم القيم أو المثل نستطيع أن نقول إنها مجموعة الأفكار والنظريات والأهداف والأحكام العقلية والدينية والثقافية ، التي يؤمن بها فرد أو مجتمع مهما كان مصدر هذه القيم ، فقد يكون مصدرها الدين ، كما قد يكون مصدرها الأحكام والتجارب الإنسانية والأخلاقية. وليست القيم واحدة في المجتمعات ، فقد يؤمن الفرد أو المجتمع بمجموعة من القيم يؤمن بغيرها الأفراد الآخرون والجماعات الأخرى ، وتشكل القيمة غالباً الدوافع الهامة للفكر والسلوك البشريين ، لذلك فقد أفرد لها الباحثون في الحضارات الإنسانية كتباً خاصة تحت عنوان فلسفة أو نظرية القيم .

وإذا كانت القيم تقاس بمقدار سموها وتحقيقها للخير العام للإنسانية فإننا

نستطيع أن نقول إن الإسلام يقدم للناس أسمى القيم وأكثرها رقياً وتحقيقاً لمعنى الإنسان ، فالقيم الإسلامية تحقق وظائف عدة ، ففيما يتعلق بالفرد تحاول أن ترفعه فوق مرتبته الراهنة وترفعه من المستوى الحيواني الذي يقتصر على الماديات من طعام وشراب وجنس إلى المستوى اللائق بكرامة الإنسان وتقدمه ورقيّه ، وفيما يتعلق بالمجتمع فإنها تحقق أعظم عامل للربط بين أفراده والسمو به إلى مرتبة الحضارة والمدنية ، وتقيم الصلات بين الأفراد والهيئات في المجتمع على أسس نبيلة كريمة .

الإيمان

يمكن أن ينظر إلى الإيمان من خلال معنيين : عام وخاص أما المعنى العام فيقصد به كل اعتقاد يعتقده الإنسان مهما كانت قيمة هذا الاعتقاد ، فكل مؤمن بفكرة أو عقيدة نسميه مؤمناً ، ولا يكتمل معنى الإنسان إلا بالإيمان بفكرة أو عقيدة أو دين . أما المعنى الخاص فهو الإيمان من حيث هو مَثَل من المثل التي يقوم عليها الإسلام وتعتمد عليها الثقافة الإسلامية .

والإيمان بهذا المعنى ، هو أول هذه المثل وأولاها بالذكر والتفصيل ، لأنه العنصر المشترك في القيم جميعاً إذا أضفنا إليه موضوعه الذي يتميز به في الإسلام ، إن الإيمان بالحق والعدل والمساواة وكرامة الإنسان واجب وإلا كانت هذه القيم مجرد شعارات لا تقدم ولا تؤخر في سلوك الإنسان وتفكيره ، يضاف إلى ذلك إيمان يحتمه الإسلام بأركان أساسية لا يتم إيمان المسلم إلا بها ، وهذه الأركان هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر والبعث والجزاء ، ولما كان أسمى هذه الأركان وأساسها هو الإيمان بالله والرسل ، فإن الحديث لا بدّ أن يبدأ عنه لأن الإيمان بالكتب منبثق عن الإيمان بالله ورسله ، كما أن الإيمان بالبعث والقدر متعلق بهما أيضاً ، فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد الخالق المدبر ، فإنه لا بد أن يترتب على إيمانه هذا ، الإيمان بالكتب ثم بالقدر والمسؤولية والجزاء .

الإيمان بالله : سبق أن ذكرنا مكان الألوهية في التصور الإسلامي ، ونضيف إلى ذلك بأن الإيمان بالله يشكل لدى الإنسان حاجة أساسية سواء من الناحية العقلية أو من الناحية الفطرية أو من الناحية العاطفية ، فالإنسان منذ وجد على سطح البسيطة ، وهو في كل مجتمع وفي كل زمان ومكان يتساءل من أين جاء وإلى أين يذهب ، ومتى يذهب ، وكيف وجد ، وهذه الأسئلة تبقي موضوع الإيمان حياً في النفس على الدوام ، ثم أن مظاهر الطبيعة المفردة أو الشاذة ، والسنن المستمرة ، والحوادث المفردة التي لا تتكرر تشعر الإنسان بضعفه أمام الكون فتلجئه إلى الإيمان بالله يستمد منه القوة في الحياة ، وقد تخفف العادة من حدة هذا الشعور ، ولكن وقفة من وقفات التأمل سرعان ما تعود بالإنسان إلى الطريق السويّ ، ثم إن أوقات النوائب تتيح للإنسان فرصاً كبيرة للعودة إلى النفس وإحكام الصلة بالله وتوثيق الإيمان به تماماً ، كما تفعل النعم السابغة المستمرة .

إن أول ما يجب على الإنسان ليكون مؤمناً أن يكون موقناً من قلبه بوجود الله تعالى ، فإنه إذا لم يكن موقناً بوجوده فكيف يؤمن به ويطيعه ويتبع قانونه . وتختلف السبل إلى الإيمان بالله ، فبينما يصل اليه البعض بالعقل والفكر ، يصل اليه آخرون بالعاطفة ، وآخرون بالوراثة ، وآخرون بالعاطفة والفكر ، وهكذا .. وقد تضل العقول سبيلها إلى الخالق وتنزل إلى درك من السخف في النظر فتتخذ من الأحجار أو الحيوان أو الإنسان آلهة تجثو تحت أقدامها ، فتجيء رسالة السماء لتخرج الناس من الظلمات إلى النور على يد رسل الله وأنبيائه »[1] .

ولا بد من أن نلاحظ قبل التحدث عن الطرق التي اتبعها الإنسان لمعرفة الله أن هذه المعرفة إما أن تتوجه إلى حقيقة الله وطبيعته ، أو أن تتوجه إلى آثاره ومخلوقاته . أما المعرفة الأولى فمستحيلة ، لأن وسائل الإنسان للتعرف على الأشياء قاصرة عن التعرف إلى حقيقة الله وذاته ، لأن الإنسان يتعرف على الحقائق والموجودات بحواسه وعقله وبالممارسة والتجربة ، وكل ذلك قاصر ومتغير ، وإذا لم تستطع حواسنا معرفة الله بهذا المعنى فلا يستدعي ذلك إنكار وجوده لأننا نجهل

---

١ – مقدمة كتاب العلم يدعو للإيمان : ترجمة الأستاذ الفلكي ، وتقديم الأستاذ الباقوري .

عوالم كثيرة كعالم الجراثيم وعالم الأفلاك ، ولم يمنع جهلنا بها وجودها وأن يترتب على وجودها نتائج كثيرة ، لأن وجود الشيء غير إدراكه ، وهكذا فإن آثاره تعالى قائمة في كل مجال ، وإن شيئاً من التأمل الواعي يقودنا حتماً إلى معرفته والإيمان به . إن معرفة طبيعة الله غير ممكنة ، ومعرفة الله عن طريق أفعاله هي المعقولة ، ولن تستطيع حواسنا معرفة كُنْه الله وماهيته ولكن حواسنا لا تعلم كل شيء في العالم ، إنها لا تعلم إلا القليل من هذا العالم .

ومهما اختلفت طرق الأديان السماوية في وسائل الإقناع ، فإنها تعتمد أول ما تعتمد على تحريك الوجدان وإثارة العاطفة بالإضافة إلى اعتمادها على إثارة قوى الإدراك والتفكير ، لأن حقيقة الإله الموجد أكبر من أن يحدّها الفكر . ذلك لأن العقل مهما بلغ من القوة والذكاء ليس إلا حاسة من الحواس التي تربطنا بعالمنا المحدود ، فلا يجوز للعقل الشطط كما لا يجب عليه القعود .

والإسلام يعتمد على الفطرة في إثارة الإيمان ، والفطرة ليست عقلاً صرفاً ولا عاطفة محضة وإنما هي مزيج من العقل والعاطفة إذا التقيا فلم يطغ أحدهما على الآخر كانت الفطرة سليمة تنشد الله وتعرف سبيلها اليه من أقرب طريق»[1] . يقول تعالى : «يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب» [2] ولا نشك أن الفطرة السليمة تقف مبهورة أمام مثل هذه الآية ومئات غيرها يلفت القرآن الكريم نظر النفس الإنسانية إليها .

وحتى يكتمل معنى الإيمان لا بد أن يعرف المرء صفاته تعالى ، لأنه إذا لم يعرف أن الله واحد لا شريك له في ألوهيته ، — كما يقول الأستاذ المودودي—[3] فكيف يرتدع عن طأطأة رأسه ومدّ يده الى غير الله ، وكذلك إذا لم يكن موقناً

---

١ — مقدمة كتاب العلم يدعو للإيمان .

٢ — الحج ٧٣ .

٣ — مبادىء الإسلام ٢٢ .

بأن الله سميع عليم بصير بكل شيء فكيف يمسك عن معصيته والخروج عن أمره . فالإنسان لا يمكنه أن يتحلى بالصفات اللازمة التي يجب عليه أن يتحلى بها في أفكاره وأعماله وأخلاقه لسلوك صراط الله المستقيم ما دام لا يعرف صفات الله تعالى ولا يحيط بها إحاطة كاملة ، هذا بالإضافة إلى أن الصفات التي وصف الله نفسه بها تبقى منارات أمام الإنسان يجهد إلى أن يتمثلها في فكره وسلوكه ، فالكرم والحلم والإحسان والرأفة والرحمة كلها صفات وصف الله نفسه بها ، وكم يكون مجتمعاً فاضلاً ذلك المجتمع الذي يتمثل بهذه الصفات .

ثمرات الايمان : إن النتائج التي تترتب على الإيمان بالله وتوحيده كثيرة وهامة ، سواء بالنسبة للأفراد أو بالنسبة للمجتمعات ، من أهمها :

● تحرير الإنسان من العبودية لغير الله أو الخضوع لسواه : ومن أجل هذا يدعو القرآن الناس جميعاً إلى هذا الإيمان : «قُل يا أهلَ الكتاب تعالوا إلى كلمة سَواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبُدَ إلا الله ولا نُشرك به شيئاً» [1] ، وحتى يكون التحرر من الخضوع لغير الله كاملاً فإن القرآن ينفي شبهة القداسة عن أي فرد من الناس ولو كان رسولاً نبياً «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» [2] . وقد خاطبه القرآن بقوله :

«ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم» [3] فالملك كله لله والأمر كله له .

● تحرير النفس من سيطرة الغير والخوف منه : لأن أولئك الذين يخشونهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً «ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعكَ ولا يضرّك فإن فعلتَ فإنّك إذاً من الظالمين ، وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشف لهُ إلاّ هُوَ ، وإنْ يردكَ بخيرٍ فلا رادّ لفضله يُصيبُ بهِ مَن يشاء من عباده ، وهوَ الغفور

---

١ – آل عمران ٦٣ .

٢ – آل عمران ١٤٤ .

٣ – آل عمران ١٢٨ .

الرحيم» [1] «ولا يملكونَ لأنفسهم ضَراً ولا نفعاً ولا يملكون مَوْتاً ولا حياة ولا نُشُوراً» [2]

وإذا تحررت النفس من الخوف من الغير فإنها تتحرر من الذل والعبودية والخضوع لغير الله . إن الإنسان قد يذل لغيره خوفاً على حياته أو رزقه أو جلباً للمنفعة أو دفعاً للمضرة ، وقد بيّن القرآن أن المنفعة والمضرة بيد الله كما أن الحياة والموت والرزق بأمره «أينما تكونوا يُدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة» [3] «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً» [4] «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتبَ عليهم القتل إلى مضاجعهم» [5] والرزق كالموت والحياة بيد الله لا يجوز أن يخاف الإنسان عليه من أحد سواه : « الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له» [6] «وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإيّاكم» [7] «وما من دابة في الأرض إلاّ على الله رزقها » (٨ .

● ثم إن الإيمان الحيّ بالله يملأ النفس طمأنينة وسكينة وثقة ويرفع من قوة الإنسان المعنويّة ويدفع عنه اليأس والقنوط ، فالمؤمن متفائل أبداً واثق من نفسه ومن نصر الله ، «الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب» [9] «هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم» [10] «الله وليّ الذينَ آمَنوُا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت

---

١ – يونس ١٠٦ ، ١٠٧ .
٢ – الفرقان ٣ .
٣ – النساء ٧٨ .
٤ – آل عمران ١٤٥ .
٥ – آل عمران ١٥٤ .
٦ – العنكبوت ٦٢ .
٧ – العنكبوت ٦٠ .
٨ – هود ٦ .
٩ – الرعد ٢٨ .
١٠ – الفتح ٤ .

يخرجونهم من النور إلى الظلمات» [1] «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم» [2] .

إن الذي يؤمن بالله لا يتسرب إليه اليأس في حال من الأحوال فإذا ضاقت عليه الحياة ، وانقطعت عنه الأسباب المادية جميعها ، فإن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه ، فلا يزال يبذل الجهود المتتابعة متوكلاً على الله مستمداً منه المعونة في جميع أحواله ، وهذا ما يفسر انعدام الانتحار بين المؤمنين وكثرته بين الملحدين الكافرين .

● والإيمان يجعل الإنسان متقيداً بقانون الله حريصاً عليه ويمنحه ضميراً يقظاً مراقباً لله في كل ما يعمله أو يقوله أو يفكر به ، لأنه يعلم أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

الايمان بالنبوة : إن الإيمان بالنبوة – أو الصلة بين الله تعالى ومجتمع الإنسان عن طريق الأنبياء – من خصائص التصور الإسلامي ومميزاته . والنبي هو الإنسان الذي يختاره الله تعالى ليقوم بأداء رسالة معينة إلى عباده ، وقد وجدت مذاهب تؤمن بالله ولكنها تنكر النبوة وتزعم أنه لا حاجة لوجود هذه الصلة وحجة أصحابها في ذلك ، أن ما أتى به الأنبياء إما أنه موافق للعقل ففي العقل غنى عنه ، أو مخالف له فلا حاجة لنا به لأننا نعتمد العقل طريقاً للاستدلال على حقائق الأمور .

ويردّ على أصحاب هذا الرأي بأنه يستحيل أن نتقبل فكرة وجود الخالق المدبّر دون أن تترافق مع الإيمان برعايته لخلقه وتدبيره المستمر للكون ، هذا وليس من الضروري أن يكون كل ما في العقل مخالفاً لما يأتي به الأنبياء ، فجميع التصورات والشرائع التي نزلت بها الرسالات السماوية يقرها العقل الصحيح المعتمد على تفكير علمي منظم ، بالإضافة إلى أن لكل من العقل والوحي ميدانه الخاص في كثير من المسائل ، فإذا استطعنا بالمنطق التجريبي والرياضي التوصل إلى حقائق

---

١ – البقرة ٢٥٧ .

٢ – يونس ٩ .

علوم الكون والحياة فإننا لا نستطيع بغير الوحي أن نتوصل إلى حقائق ما وراء المادة، فالعلم الصحيح بذات الله تعالى وصفاته وطرقه المرضية وحساب الآخرة ومجازاتها لطاعة الله وامتثال أوامره وأحكامه ، وكل ما يتعلق بعالم الغيب ، كل ذلك لا يعرف إلا عن طريق الأنبياء .

والصلة بين الله والأنبياء تتم بوسائل متعددة ، وغالباً ما يبدأ الوحي بالرؤى الصادقة ، وفي قصص الأنبياء كثير من حوادث الرؤيا الصحيحة ، وقد قص علينا القرآن الكريم قصتها عندما حدثنا كيف أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه اسماعيل عليه السلام : «فلما بلغ معه السعي قال يا بنيّ إني أرى في المنام إني أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت افعل ما تؤمر» [1] وقد تكون وسيلة الاتصال الإلهام في حالة اليقظة ، كما حدث مع الرسول الكريم إذ أتاه هذا الإلهام وهو جالس بين المسلمين ، قال رسول الله ﷺ : « هذا رسول رب العالمين ، نفث في روعي أنه لا تموت نفسي حتى تستكمل رزقها». وقد يكون الاتصال بأن يكلم الله تعالى النبيّ مباشرة كما حصل لموسى عليه السلام كما حدثنا القرآن عنه : « فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أنْ يا موسى إني أنا الله رب العالمين ..» [2] والواسطة العادية في حصول الوحي أن يكون عن طريق جبريل عليه السلام: « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربيّ مبين »[3] ، وأحياناً كان جبريل ينزل مجسداً يراه المسلمون كما حصل في حديث أركان الإيمان والإسلام والإحسان وأشراط الساعة الذي روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وحين يدّعي إنسان أنه يتصل بالله ويحمل منه إلى الناس رسالة ترتب عليهم تكاليف وواجبات ، فإن من الطبيعي أن يطالبه الناس بالدليل على صدقه ، ولم يرَ القرآن الكريم في هذا أمراً خارجاً على المعقول فالتساؤل حتى للتعليم والتنبيه

---

١ – الصافات ١٠٢ .

٢ – القصص ٣٠ – ٣١ .

٣ – الشعراء ١٩٣ – ١٩٥

مطلوب «وإذ قال ابراهيمُ رَبِّ أرني كيفَ تُحيي المَوتى قال أوَ لم تؤمِن ؟ قالَ بَلى ولكن ليَطمئِن قلبي ...» [1]

ومن هنا ظهرت الحاجة إلى وجود ما يثبت النبوة ، وتعدّ المعجزة من أهم الوسائل التي أجراها الله على أيدي أنبيائه ليؤمن الناس أنهم لا يمثلون أنفسهم . والحقيقة أن الإيمان بالرسل مرتبط بالإيمان بالله من جهة وبالغيب من جهة أخرى ، ذلك الإيمان الذي يعتبر أخص مميزات المسلم التقي : « ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هُدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب »[2] .

والمعجزة في الأصل حادث خارق للعادة والقوانين التي يلاحظها الناس وتجري عليها سنن الكون ، يجريه الله تأييداً للنبيّ ، وقد حاول البعض أن يعطي المعجزة صورة الأمر العاديّ لكن الحقّ أن المعجزة إذا فقدت الصفة الخارقة للعادة فقدت معناها وكونها دلالة على صدق النبيّ ، فإذا بيّن مدّعي النبوة أن دلالة صدقه أن تطلع الشمس من المغرب وهي عادة تطلع من المشرق كان ذلك دلالة وتأييداً ، أما إذا أخبر قومه أن الشمس تطلع من المشرق فليس في الأمر جديد .

وقد كانت المعجزات ، والمادية منها على وجه الخصوص مجالاً لبحوث كثيرة وإنكار من بعض الذين يدّعون الموضوعية ، وقد تحدث القرآن عن مجموعة من المعجزات المادي منها والمعنوي ، وإذا دعا الإسلام إلى الإيمان بمعجزات الأنبياء فإن الإسلام دين المعجزات التي يراها العقل حيثما نظر ، وليس دين المعجزات التي تكف العقل عن الرؤية ، وليس معنى أن يؤمن المسلم بإمكان المعجزة أن ينكر السنن الكونية ، فليست المعجزة بأعجب من خلق السموات والأرض وما فيهما من كائنات وعجائب ، وإذا آمنا بخلق الله للعالم كله فلن يستحيل علينا أن نؤمن بخلق حادث مفرد يخرق به النواميس والعادات ، فخوارق العادات ممكنة لا استحالة فيها ، ومن قال باستحالتها لزمه الإثبات ، لأنه يدّعي الاستحالة

---

١ – البقرة ٢٦٠ .

٢ – البقرة ١ – ٣ .

عقلاً بغير دليل ، وليست المعجزة ضد العقل ولكنها فوقه ، وهناك فارق عظيم بين ما هو ضد العقل وما هو فوقه ، فما هو ضد العقل يلغيه ، وما هو فوقه يطلق له المدى ويوقفه حيث ينبغي له أن يقف [1] .

ومن المعجزات المادية التي تحدث عنها القرآن : ناقة صالح ، وقد قص القرآن خبرها بقوله : « قالوا إنما أنت من المسحّرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم » [2] ومنها معجزة تحول عصا موسى وهي جماد إلى حياة : « قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشيء مبين ، قال فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين » [3] ومنها معجزات عيسى عليه السلام ، وقد حدثنا القرآن عنها بقوله : « إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » [4] .

---

١ – عباس العقاد ، التفكير فريضة إسلامية .

٢ – الشعراء ١٥٣ – ١٥٦ .

٣ – الشعراء ٢٩ – ٣٣ .

٤ – آل عمران ٤٩ .

من المعجزات التي كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم : الإسراء من مكة إلى القدس في ليلة واحدة : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » / الإسراء ١ / وتنبؤه بانشقاق يظهر على سطح القمر ، وهي ظاهرة سماوية وقعت فعلا بعد تنبئه بها مباشرة وشاهدتها الجماهير التي كان يخاطبها : « اقتربت الساعة وانشق القمر » / القمر ١ / ، ومعجزة النصر على جيوش أعدائه النصر المؤزر وهو في قلة من أتباعه بتأييد من الله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » / الأنفال ١٧ / . ومنها تنبؤاته وهو في حال الضعف المادي الشديد بالانتصار على كفار مكة وانقراض دولتي فارس والروم . إن معظم آيات البشارة بالغلبة والنصر كانت والمسلمون في كرب شديد ، ومنها حمايته من الناس « والله يعصمك من الناس » وكثير غيرها في سنة الرسول وحديثه .

والمتتبع لتاريخ الأمم السابقة يلاحظ أن معظمها لم يؤمن بالمعجزة المادية بل أصرت على كفرها وإلحادها ، فالهداية بيد الله ، ومهما تكن المعجزة قارعة فإن قلوباً أشد قسوة من الصخر «واو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون» [1] . وهكذا فمهما تكن قوة المعجزة المادية فإن البعض سيقول إنه السحر أو خداع البصر ، لذا فقد خاطب الله تعالى رسوله متحدثاً عن هذا المعنى بقوله : «وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً» [2] .

أما المعجزات المعنوية والعقلية فأهمها القرآن الكريم الذي تنزل على خاتم المرسلين محمد عليه السلام ، وهو معجزة ذاتية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالرسالة وتتصل بماهيتها وتتعلق بجوهرها ، فهي معجزة يتقبلها العقل على الدوام لأنها تخاطب الفكر البشري وتعتمد على القناعة العقلية أكثر مما تعتمد على قرع الحواس الذي هو أصل المعجزات المادية . وكانت البشرية قد قطعت حتى بعثة الرسول شوطاً كبيراً من الرقيّ العقلي حتى أمكن مخاطبة العقول مباشرة ، وخطاب العقل أكثر شمولاً ودواماً واستقراراً وخلوداً ، فالقرآن الكريم معجزة الرسول والإسلام حتى أبد الدهر .

وقد اختلف الباحثون في حقيقة الإعجاز في القرآن على ثلاثة اتجاهات رئيسية :

فهناك من يرى بأن المعجز في القرآن هو في صياغة ألفاظه الخارقة للعادة وبلاغته الواضحة التي أعجزت العرب أن يأتوا بمثلها .

وهناك من يراه فيما ورد في القرآن الكريم من الإعلام عن الغيوب وعن حوادث الأمم السابقة وتاريخها وعقائدها ، فقد أشار القرآن إلى حوادث ستقع في المستقبل ، ثم وقعت كما حدّث . مثال ذلك قوله تعالى : «ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون في بضع سنين» [3] فقد حصل أن

---

١ – الحجر ١٤ ، ١٥ .
٢ – الإسراء ٥٩ .
٣ – الروم ١ – ٤ .

الفرس غلبت الروم ، فأخبر القرآن عن هذه الواقعة وأنبأ بأن الروم سينتصفون من خصومهم في بضع سنين ، وقد تم ذلك فعلاً ، وبما أن أي إنسان لا يستطيع أن يعلم الغيب فإن هذا يثبت أن الكتاب منزل من الله وفيه من الإعجاز ما فيه [1] . ثم إن القرآن تحدث عن تاريخ الأمم السابقة وأديانها وألمّ بكل صغيرة وكبيرة من أحداثها وشؤونها ، ولما كان الرسول عليه السلام أمّيّاً لم يطلع على كتب الأقدمين التي لم تشر بدورها بدقة إلى تلك الأمور ؛ فلا بد أنه تعالى هو الذي أخبر نبيّه بهذه الأخبار .

وأخيراً فإن كثيراً من الباحثين يرون بإن الإعجاز في القرآن هو فيما ورد فيه من أنظمة إنسانية بالغة الرقي لم تعهد الإنسانية مثلها قديماً أو حديثاً في ضمان مصلحة بني الإنسان العامة وتأمين حياته الخيّرة ، فقد ورد في القرآن أنظمة لحياة الإنسان في مختلف ألوان النشاط البشري من نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية مما سنعرض له ، ولما كانت هذه الأنظمة بعيدة عن قدرة أي إنسان أو تصوره فلا بد أن يكون القرآن منزلاً من الله ومثبتاً لرسالة النبي عليه الصلاة والسلام .

والحقّ أن الإعجاز في القرآن يشمل هذه الأمور جميعاً ، فهو معجزة في اللفظ العجيب والتركيب البلاغي البديع ، وهو معجز في إخباره عن الغيوب وأنباء الأمم السابقة ، وهو معجز في أنظمته الرائعة السامية ، ولا نستطيع أن نحصر الإعجاز في جانب واحد ، فالقرآن معجزة الرسول إلى الناس جميعاً في مختلف أزمانهم وأمكنتهم ، لذا كان من الطبيعي أن يحوي هذه الوجوه المتعددة من الإعجاز ، فإذا آمن العربي به لإعجازه البلاغي ، فقد يؤمن به الرومي لإخباره عن الأمم السابقة ، كما قد يؤمن به الفارسيّ للأنظمة التي فيه . فالقرآن معجز كلمة ولفظاً ونظاماً .

---

١ – أنظر تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار الهمذاني وتحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ففيه عشرات الحوادث من هذا القبيل .

الوحي :

تعتبر ظاهرة الوحي من الظواهر الخارقة التي ترافق النبوة كظاهرة المعجزة ، والوحي لغة : هو الإعلام الخفي السريع ، وهو في الاصطلاح : إعلام الله تعالى لنبيّ من أنبيائه بحكم شرعي أو نحوه ، وحيثما أطلق هذا اللفظ فإنه يراد به هذا المعنى .

وقد ورد الوحي بمعنى الإعلام من الله تعالى إلى عباده وبعض المخلوقات الأخرى كما ورد بالمعنى الاصطلاحي .

فقد أوحى جلا وعلا إلى النحل : «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً»[1] وأوحى إلى أم موسى «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه اليك» [2] ، كما أوحى تعالى إلى الحواريين «وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا آمنا واشهدْ بأننا مسلمون» [3] والملائكة يوحى اليهم أيضاً «إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ..»[4] .

أما الوحي بالمعنى الاصطلاحي ، فقد أشار اليه القرآن بالنسبة للأنبياء جميعاً، من ذلك مثلاً قوله تعالى : «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وآتينا داود زَبُوراً . ورُسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلّم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً »[5].

---

١ – النحل ٦٨ .
٢ – القصص ٧ .
٣ – المائدة ١١١ .
٤ – الأنفال ١٢ .
٥ – النساء ١٦٣ – ١٦٥ .

فالوحي الإلهي للرسل ، اتصال خالق هذا الوجود بواحد يختار من البشر يكون رسولاً إلى خلقه ، وذلك الاتصال يتم كما ذكرنا بالإلهام الروحي ، أو بأن يكلمه تعالى من وراء حجاب أو بملك يرسله كما قال تعالى : «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء [1] . »

والوحي أحد دعائم الإيمان بالغيب ، ويعتبر هذا الإيمان من أسس العقيدة الإسلامية وكل دين آخر ، لأن فيصل التفرقة بين المتدين وغير المتدين أن يؤمن بالغيب وأن وراء هذه المادة قوة أخرى غيرها : «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليكَ وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون [2] : «فمَن لم يؤمن بالغيب فقد جحد ومن يؤمن بالغيب فقد تدين» [3] .

وحين يأتي الرسول الوحي ، كانت تعتريه حالة جسدية عنيفة تقتصر على وجهه الكريم فكان يحمر ويتفصد عرقاً ، وقد روي أن الصحابة كانوا أحياناً يغطون رأسه بالثوب لما يرون من الإجهاد عليه ، وكانت تواتيه في ذلك الوقت قوة غريبة ، وقد تكلم بعض المستشرقين عن هذه الظاهرة كلاماً ينبعث عن تعصب ذميم على الإسلام ، وقد تصدى للرد عليه عدد من الكتاب المسلمين المحدثين ، ومن أفضل ما كتب في هذا المجال كتاب «النبأ العظيم عن القرآن الكريم» للأستاذ عبد الله دراز .

إن ظاهرة الوحي خارقة للنواميس الطبيعية ، ولكنها ليست مستحيلة عقلاً ، ويمكن تقريبها للأذهان ببعض الظواهر ، وإن كان الوحي من طبيعة أخرى ، فعن طريق التنويم المغناطيسي يمكن الإيحاء للمنوم بأشياء يقوم بها أو يقولها ، ولكن الفرق بين التنويم والوحي : أن الأول هو تسلط إرادة إنسان على إنسان آخر ،

---

١ – الشورى ١ .

٢ – البقرة ١ – ٣ .

٣ – محمد أبو زهرة ، المجتمع الإسلامي في ظل الإسلام ٢٤ .

بينما الثاني إعلام خفي لا تسلط فيه . ويبدو الحدس وكأنه معرفة دون مصدر إنساني ، ولكنه في الحقيقة يختلف أيضاً في أنه معرفة مباشرة لموضوع قابل للتفكير ، أو غاص فيه التفكير فعلاً لا تصحبه أي ظاهرة عضلية كما يحصل للنبي في الوحي .

أما رؤية الملاك واسطة الوحي ، فقد كان الصحابة يرونه أحياناً ، وحديث عمر عن أركان الإيمان والإسلام والإحسان مشهور في هذا المعنى ، فقد رأى الصحابة الذين كانوا في مجلس الرسول ﷺ جبريل عليه السلام وهو يكلم الرسول ويناقشه .

وغالباً ما كان الرسول وحده هو الذي يراه ، وليس في هذا شيء من الاستحالة العقلية ، إذ يمكن مقارنة هذه الظاهرة بظاهرة عمى الألوان : فبعض العيون لا ترى ألواناً معينة ، كما أن ما تحت النور الأحمر وفوق الضوء البنفسجي لا تراه العيون ، لكن لا شيء من الناحية العلمية يثبت أن كل العيون لا تراه .

ثم إننا نلاحظ أن حواس الكائنات تختلف في إدراكها للأشياء ، وهي تحكم بما يسمى بقانون العتبات ، أي أن لكل حاسة عتبة دنيا لا تحس ما دونها من المخلوقات والموجودات ، وعتبة عليا لا تحس بما فوقها من هذه الموجودات ، فهي لا تحس إلا بما بين العتبتين ، وهاتان العتبتان مختلفتان في الإنسان عنهما في سائر الكائنات الأخرى ، وهكذا قد تلتقط أذن الكلب أصواتاً لا تلتقطها أذن الإنسان ، وقد ترى عين الحصان أشياء لا تراها عين الإنسان ، وهكذا ..

قلنا هذا لنقرب ظاهرة الوحي إلى الأذهان ولنبين أنها غير مستحيلة عقلا ، وإلا فهي إحدى الظواهر الخارقة التي يتصل الإيمان بها بالإيمان بالله تعالى خالق الأكوان والعجائب فيها ، والذي لا يعجزه أن يخرق السنن والنواميس التي خلق الوجود عليها .

تعدد الأنبياء :

وما دام حديثنا عن النبوة والإيمان بها فإننا سنعرض لظاهرة هامة هي ظاهرة تعدد الأنبياء ، وهل يؤمن المسلم بهم جميعاً ، وما هو سبب هذا التعدد .

إن الإسلام حين يأمر بالإيمان بالنبوات السماوية جميعاً فإنه بذلك يعلن وحدة الأصل الذي يأخذ عنه الأنبياء ، ووحدة رسالاتهم ، ووحدة الإنسانية جميعاً : «قولوا آمنا بالله وماأنزل الينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» [1] : «آمن الرسول بما أُنزل اليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» [2]

ونستطيع أن نذكر لتعدد الأنبياء ثلاثة أسباب هي : اختلاف البيئات والظروف ، وتطور عقول الناس وتجاربهم ، وتحقيق التدرج في التشريع . فالبيئات الإنسانية ليست واحدة ، والظروف التي يمر بها الإنسان متغيرة ، ثم إن مدارك الناس وعقولهم في تطور مستمر لنماء التجربة الإنسانية وغنى الخبرة البشرية ، لذلك كان لا بد من أن تؤخذ هذه التغيرات بعين الاعتبار ، هذا عدا عن أن التدرج في التشريع أمر لازم ليحدث تأثيره ويطبق تطبيقاً سليماً . وهكذا فإن ما يناسب بعض الناس في ظرف معين أو زمان ما ، قد لا يناسب الناس في ظرف أو زمان آخر ، وهذا ملاحظ في جميع نواحي النشاط الإنساني ، فليس معنى تعدد الرسالات الإلهية أن هناك تناقضاً بين هذه الرسالات ، وإنما هي رعاية الخبير بحال البشرية الذي يقدم لها في كل حين ما يتناسب مع مداركها ، فرسالات السماء طب للعقول والنفوس كطب الأجسام والأبدان ، وكما يراعي الطبيب في إعطاء الدواء سن المريض وحالته ويمنعه من تناول الدواء جرعة واحدة لأنه قد

---

١ – البقرة ١٣٦ .

٢ – البقرة ٢٨٥ .

ينقلب سماً مميتاً ، فكذلك شأن النبوات والرسالات الإلهية تحتاج إلى قدر معين من التطور الوجداني والإدراك العقلي .

خصائص الرسالة المحمدية :

بعد أن انتهينا من الحديث عن معنى الإيمان بالنبوة بصورة عامة ، فإن من المفيد أن نختم حديثنا بالحديث عن خصائص رسالة محمد عليه السلام . هـــذه الخصائص تلاحظ في أربعة أمور [1] :

١ ــ العموم والخلود

٢ ــ الصحة من بين سائر الرسالات الباقية

٣ ــ الشمول والكمال

٤ ــ ختمها للنبوات جميعاً

أما أن رسالة محمد عليه السلام عامة وخالدة ، فلأنها جاءت للناس أجمعين ، ولم تقتصر على جنس دون جنس أو طائفة دون أخرى أو زمان دون زمان : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » [2] وكانت الرسالات السابقة تختص بأمم معينة ، وقد كتب الله أن تكون رسالته رسالة البشرية حتى تلقى وجه ربها ، كما كتب على نفسه أن يحفظ هذا القرآن الذي هو سجل هذه الرسالة حتى أبد الآبدين «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» [3]

ثم إن رسالة الإسلام حافظت على صحتها من بين سائر الرسالات التي دخلها التصحيف والتحريف ، وسيرته عليه السلام بقيت أصح سير الرجال والأنبياء .. فالقرآن منقول بالتواتر بين المسلمين حتى نستطيع أن نثبت دون تردد بأن لفظاً من ألفاظه لم يتغير خلال القرون كلها ، كما أن سيرته عليه السلام وقوله وفعله كل ذلك

---

١ ــ سليمان الندوي ، الرسالة المحمدية ، ومبادىء الإسلام للأستاذ المودودي .

٢ ــ الأعراف ١٥٨ .

٣ ــ الحجر ٩ .

محفوظ لنا في كتب الحديث والسير ، ولقد نشأت مع الإسلام علوم خاصة مهمتها تقديم السيرة الصحيحة والحديث الصحيح ، وهكذا فنحن نعلم حياة الرسول صغيرها وكبيرها دقيقها وخطيرها معرفة صحيحة كاملة ، وقد حفظت لنا كتب الحديث والسيرة هذه الحياة واضحة ، عن طعامه وشرابه وحكمه بين الناس وشجاعته في القتال وأخلاقه ومعاملته لأصحابه وزوجاته وللمسلمين وجميع الناس ، كل ذلك على صورة نستطيع أن نفاخر حين ندعي صادقين بأن حياة الرسول أصح السير في تاريخ البشرية كلها .

أما أن الرسالة المحمدية شاملة فلأنها تضمن جميع متطلبات الحياة ، كما أن سيرة النبي تعطي القدوة في جميع الشؤون التي يرغب الناس اتخاذ النبي قدوة فيها ، فالإسلام لم يترك جانباً من جوانب الحياة إلا وقدم له علاجاً وحلاً ، وسيرة الرسول تشمل حياة الإنسان كلها . إن صفات الكمال التي توزعت على الأنبياء جميعاً ، التقت أطرافها في شخص الرسول العظيم ، فإذا كان نوح صاحب احتمال وجلد وصبر على الدعوة ، وإبراهيم صاحب بذل وكرم ومجاهدة في الله ، وداود من أصحاب الشكر على النعمة ، وزكريا ويحيى وعيسى من أصحاب الزهد في الدنيا والاستعلاء على شهواتها ، ويونس ممن جمع بين الشكر في السرّاء والصبر في الضراء ، وموسى صاحب شجاعة وبأس ، وهارون ذا رفق ولين ، فإن سيرة محمد عليه السلام قدوة في صفات الكمال كلها ، لأن أصحاب الشجاعة يجدون فيه الرجل الذي يثبت حين يولي الناس ، وأصحاب الكرم يلقون فيه الكريم الذي يعطي بلا حساب ، وهكذا الحال في جميع الصفات الأخرى .

وأخيراً فإن رسالة محمد عليه السلام كانت خاتمة الرسالات جميعاً ، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى بقوله : «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» [1] أي إنه جاء ليكمل بناء الأنبياء ويختم رسالات السماء إلى الأرض : «إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله

---

١ – الأحزاب ٤٠ .

إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

والحاجة إلى الرسل تكون إما لأن الأمة لم يسبق فيها رسول من قبل ، أو لأن رسالة النبي السابق أصابها التصحيف والتحريف ، أو لأن تعاليم الرسالات السابقة لم تكن شاملة في دعوتها كاملة في مضمونها ، وقد قدّر الله بسابق حكمته وعلمه أن الإنسانية قد وصلت إلى رشدها في عصر محمد عليه السلام ، وأنه بالتالي يمكن أن تختم الرسالات الإلهية وتتوج بالرسالة الأخيرة ، وليس معنى تقدم العلوم والصناعات المستمر أن الإنسانية لم تبلغ رشدها العقلي منذ ذلك الحين ، إذ أن هذا التقدم ليس إلا نتيجة طبيعية لنمو الخبرة ونضوجها ورقي الآلات التي يستخدمها ، وإلا فإن الأساس العقلي والفكري واحد لا يتغير .

وقبل أن نختم موضوع الإيمان ، لا بد من الإشارة إلى أن الإيمان بالله والرسالات المنزلة على الأنبياء وما فيها من تكاليف يستدعي الإيمان بالجزاء وما يتعلق به من بعث بعد الموت ووقوف أمام الله في يوم الحساب حيث يقدم كل إنسان كشفاً بأعماله وتصرفاته ، فيحاسب كل إنسان ، ويجزى المسيء على إساءته ويكافأ المحسن على إحسانه ، فالرسالة النبوية مجموعة من التكاليف والأوامر ، وما دام الإنسان قد كُلّف فلا بد أن يحاسب على نتيجة عمله ، والقرآن مليء بالآيات التي تصور هذا اليوم العظيم وما أعدّه الله للمحسنين من نعيم وللمسيئين من عذاب شديد . إن هذا يدعونا إلى أن نبحث في فقرة خاصة موضوع العبادة والعمل والمسؤولية .

الحـــق

ان الحق من أهم المثل التي يعتمد عليها الاسلام في تزكية نفوس المسلمين وإعلاء شأنهم ، ويتمثل الحق في العقيدة الصحيحة ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، والخلق الكريم لذلك نجد أن القرآن يطلق اسم الحق على الاسلام « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » [١] « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » [٢] « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشراً ونذيراً » [٣] .

والاسلام في تقرير هذا المعنى مكمل لرسالة الرسل جميعاً ، فقد كانت دعوة الحق دعوة الأنبياء قاطبة : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط

---

٥ – بحث نشر في كتاب النظام السياسي للمؤلف .

١ – سورة الفتح ٢٨ .

٢ – الإسراء ٨١ .

٣ – الإسراء ١٠٥ .

مستقيم » [1] .

والحق والباطل طرفان متقابلان لا يخلو عمل من الأعمال أو عقيدة من العقائد من الخضوع لأحدهما إذ لا يجتمع حق وباطل .

وإذا كان الاسلام دين الحق ، فإن ما يدعو اليه أصحاب الدعوات الأخرى هو الباطل ، ولا بد أن يقوم الصراع بين الحق والباطل ، فهذا الصراع قديم قدم الإنسانية ، ومنذ أن عرف في الدنيا حق وباطل ، ومهما بدا من غلبة الباطل في بعض الأحيان فإن الحق هو الذي يعلو أخيراً وهو الذي يثبت وينفع لأن الزبد يذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . والإسلام يدعو المسلمين أن يتمسكوا بالحق ويقفوا معه في كل أمر وأن يعملوا لإعلاء كلمة الحق بكل ما يستطيعون حتى تقوم كلمة الحق وحتى يصبح الالتزام بالحق رائد الإنسانية جمعاء . ومن سنن الله أن لا يقوم الحق وحده وإنما ينهض به الرجال ذوو النفوس الكبيرة والصفات العالية .

صفات الداعين إلى الحق :

ومن أهم ما يجب أن يتميز به الداعون إلى الحق : الثبات عليه والاعتصام به ، فإنما تشرف النفس بمقدار معرفتها للحق واستمساكها به ، لأنه هو الذي يعلي قدرها ويرفع شأنها : « فاستمسك بالذي أوحي اليك إنك على صراط مستقيم ، وإنه لذكر لك ولقومك » [2] ومنها : أن يكون لهم من الشجاعة ما يحملهم على الجهر بالحق والإعلان عنه دون خوف أو جبن لأنهم منتدبون من الله تعالى لإشاعة الحق وإذاعته بين الناس « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » [3] .

---

١ – البقرة ٢١٣ .

جاء في القاموس المحيط : الحق : من أسماء الله تعالى أو من صفاته ، والقرآن ، وضد الباطل ، والأمر المقضي ، والإسلام .

٢ – الزخرف ٤٣ ، ٤٤ .

٣ – آل عمران ١٤٠ .

ولا شك أن الجهر بالحق من أعظم الفضائل لأنه لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق ، فما دام الدعاة إلى الحق يجهرون به ويعملون على نشره فلا بد أن يتوارى الباطل ويقهر ، ولا يتصور أن تنهض جماعة أو أمة إلا إذا قام فيها دعاة إلى الحق ينادون به ، وإذا فقدت هذه الجماعة كان ذلك ايذانا بزوال قوة الأمة وتزعزع أركانها « إذا هابت أمتي ان تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم » .

إن واجب دعاة الحق أن لا يخشوا الا الله وألا يخافوا احداً سواه ، لأن الجهر بالحق لا ينقص رزقاً ولا يقدم أجلاً ، فإن الآجال والأرزاق بيد الله « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً » [1] .

وحين أمر الله موسى بتبليغ فرعون دعوة الحق واعتراه الضعف البشري الذي يعرض لكل إنسان أمام الطغاة والجبابرة فقال : « اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى [2] » أجابه رب العزة : « لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » [3] . ومن كان الله معه لا يضعف ولا يندم لأنه يعطيه من قوته ويمده بالشجاعة التي يتضاءل أمامها كل طاغية جبار .

وقد كان هذا موقف إبراهيم عليه السلام حين أعلن الدعوة إلى الحق دون خوف أو وجل وإن كان لا يجد من يناصره ، حتى والده فإنه وقف مع الوثنيين ، إلا أن شيخ الأنبياء لا يقف أو يتردد ويعلن في الناس : « إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال ، «أتحاجّوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم

---

١ – الأحزاب ٣٩ .
٢ – طه ٤٥ .
٣ – طه ٤٦ .

تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » [1] .

ولقد وقف المشركون أمام أصحاب الرسول ﷺ يدفعونهم عن الدعوة إلى الحق ويخوفونهم فما يزيدهم ذلك إلا ثباتاً على الحق وقوة بالإيمان به : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » [2] .

ويبدو أن تحمل تبعات الحق والدعوة له في مختلف الظروف والثبات عليه في السراء والضراء مما يعمق جذوره ويمكن له في الأرض ، ان هذه التبعات تتطلب من الداعي إلى الحق الصبر واحتمال الألم واستعذاب العذاب ، كما تتطلب التضحية بالنفس والمال والجهد والوقت ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في أكثر من آية « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » [3] « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » [4] « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » [5] .

بهذا الحق والثبات عليه والدعوة له واحتمال تبعاته ، انتصر المسلمون في بدر والخندق والحديبية والفتح ، وفي جميع المعارك التي خاضوها ضد الفرس والروم والصليبيين والتتار والاستعمار ، ولم يكن ذلك الانتصار إلا مظهراً من

---

١ – الأنعام ٨٠ – ٨٣ .
٢ – آل عمران ١٧٣ – ١٧٥ .
٣ – العنكبوت ٢ ، ٣ .
٤ – البقرة ٢١٤ .
٥ – يوسف ١١٠ .

مظاهر الشجاعة والإيمان بالله والثقة به والاستمساك بالحق والإصرار عليه ، وإذا كان الحق هو الثابت فإن الاسلام أثبتُ على الزمن وأخلد على الدهر وأبقى على الأيام .

وأخيراً فان المسلمين أفراداً ودولاً لا يصدرون في مواقفهم إلا بدافع من الحق وتأييداً له ولو كان ذلك على حسابهم ، لأن الحق أحق أن يتبع ، فإذا كان الأفراد يتصرفون بدافع من مصالحهم أو أهوائهم ، وإذا كانت الدول تتصرف كذلك ، فإن الإسلام يأتي ليقرر مبدأ سامياً يجب أن تصدر منه المواقف والأفعال ألا وهو الحق .

الحريّـة

ومن أهم القيم الإسلامية الحرية ، لأنها فطرة الله التي فطر الإنسان عليه ، ولأنها حق طبيعي له ومن المفروض أن يتمتع الإنسان به لمجرد كونه إنسانا لأنها ضرورة للحياة الإنسانية ، وإنما يتميز الإنسان بها على سائر الكائنات الحية الأخرى . فإذا كانت الحيوانات محكومة بغرائزها ، وبغيرها فان الإنسان ذو إرادة وقصد ، ولا تتحقق إرادته إلا في جو من الحرية الكاملة الواعية التي لا تخل بمبادىء المجتمع العامة كما لا تعتدي على حريات الآخرين .

وقد جاء الإسلام ليضمن الحرية الإنسان ، جاء ليطلق حريات الناس ويحميها من العبث والاكراه سواء في ذلك الحرية الدينية والسياسية والفكرية ، لأن الحرية دعامة لجميع ما سنه الاسلام من عقائد ، ولأنها إحدى مقومات الشخصية الرئيسية ، وأساس أي مجتمع إنساني سليم .

الحريـــة الدينية :

ان الحرية الدينية تتمثل في الأمور التالية :

١ ــ عدم إكراه أحد على ترك دينه أو إكراهه على عقيدة معينة .

٢ ــ ترك الحرية لأصحاب الديانات الأخرى من أهل الكتاب ليمارسوا

شعائرهم وعباداتهم في المجتمع الاسلامي ، فلا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب .

٣ – ترك الحرية لهم فيما اباحت لهم أديانهم من الطعام وغيره .

٤ – إعطاؤهم الحرية في قضايا الأحوال الشخصية من الزواج والطلاق والنفقة وغيرها .

٥ – صيانة حقوقهم وحماية كرامتهم وترك حرية الجدل والمناقشة لهم ضمن حدود العقل والمنطق والأدب .

ولقد أعلن الإسلام الحرية الدينية وكفلها للناس بصورة لم تعهدها الانسانية قديماً أو حديثاً ، ولم يحدث في تاريخ الإسلام أن اكره انسان على ترك دينه واتباع الاسلام ، ولا منع إنسان من ممارسة عبادته في محل عبادته وعلى الطريقة التي يفرضها دينه ، ولقد دخلت جيوش المسلمين معظم الاقطار الآهلة بالسكان بعد سنوات قليلة من ظهور الاسلام ، وكان بإمكان هذه الجيوش أن تكره الناس على ترك أديانهم ، الا أن المسلمين لم يفكروا أبداً أن يفعلوا ذلك، لأن دينهم يأمرهم بترك الحرية للناس في أديانهم وعباداتهم . وبتأثير من هذا الهدي الكريم وصي الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بعدم إيذاء أهل الذمة من أصحاب الأديان الأخرى ، وبتأثير من هذا الهدي أيضاً يسجل أبو بكر رضي الله عنه في كتابه إلى قواد جيوشه أن لا يكرهوا معاهداً على ترك دينه واتباع الاسلام ، وأن يتركوا الرهبان في أديرتهم لا يمدوا لهم أيديهم بأذى ، وبتأثير هذا الهدي أيضاً يقف عمر بن الخطاب أمام كنيسة القيامة فيصلي خارجها ويأبى أن يصلي داخلها ، وبتأثير منه كذلك عاش اليهود والنصارى تحت الحكم الاسلامي قروناً طويلة كانوا فيها يجدون الرعاية والأمن أكثر مما كانوا يجدونهما في ظل الحكومات النصرانية ، فوصلوا إلى أرقى الدرجات في وظائف الدولة ، وكان فيهم الكتاب والأطباء والحكماء والمهندسون ، ولم يقف اختلاف دينهم عن دين المسلمين أمام هذا كله .[1] .

---

١ – من الأمثلة الرائعة على الحرية والتسامح الديني، أن وفداً من نصارى نجران قدم على الرسول صلى=

ان تاريخ المسلمين لم يعرف موقفاً كالذي وقفه الاسبان من المسلمين حيث غلبوهم على الأندلس فقد خيّروهم بين ترك الأندلس أو الدخول في دين النصرانية أو القتل ، فقضوا على ملايين المسلمين ، ومنعوا أن يذكر اسم الله في دولة كاملة عاش المسلمون فيها ثمانية قرون ، ولكن تاريخ الاسلام مليء بمواقف السماحة والانسانية والمحبة. واذا أردنا أن نستعرض موقف الاسلام من الأمور التي تشكل معنى الحرية الدينية ، فإننا نجد أن الاسلام يعلن عدم الاكراه في الدين ويترك الناس أحرارا في العقيدة التي يريدون أن يلقوا ربهم عليها ، فلا خير في تدين يقوم على الاكراه ، والقرآن الكريم مليء بالآيات الكريمة التي تشير إلى هذا المعنى وتؤكد عليه . من هذه الآيات قوله تعالى « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي [1] » فقد أعلن أن الحق بيّن ، وان كل انسان حرّ في اتباع أحد الطريقين ، ومسؤليته أمام الله تترتب على حرية اختياره هذه ، وهذا ما تؤكده الآية : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [2] .

« وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون . قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون »[3].

فقد بينت هذه الآية أنه كان بإمكانه تعالى أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين لولا أن هذا يتعارض مع الحكمة من خلقهم ، فقد خلقهم الله ورتب العقول

= الله عليه وسلم ، فأنزلهم رسول الله في المسجد وسمح بصلاتهم فيه ، فكانوا يصلون في جانب منه ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر . ومن الأمثلة أيضاً ، ان امرأة نصرانية من مصر شكت إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن عمرو بن العاص ضم بيتها إلى المسجد وعندما سئل عمرو أخبر الخليفة أنه عرض عليها أضعاف ثمنه فأبت فوضع لها المال في بيت المال وأمر بهدم البيت ، ولكن عمر الخليفة العادل لم يرض بذلك وأمر بهدم تكملة المسجد وإعادة البيت إلى صاحبته .

١ – البقرة ٢٥٦

٢ – يونس

٣ – يونس ١٠٠ ، ١٠١ .

فيهم ، ووضع أمام حواسهم وعقولهم مختلف الآيات والدلائل التي تدل على الله وتشير إلى العقيدة السليمة ، والناس بعد ذلك مخيرون في أن يؤمنوا أو يضلوا . لذلك قال الله تعالى : « فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »[1] .

أما حرية ممارسة الشعائر الدينية فقد كانت مؤمنة في الاسلام بشكل لم يعرف لـــه مثيل في أي دين أو نظام آخر ، فالرسول الكريم يدعو إلى تركهم وما يدينون ، واليهود والنصارى يترددون على كنائسهم وبيعهم في ظل الدولة الاسلامية . ولم يعرف أن حاكماً مسلماً هدم كنيسة أو أقفل بيعة أو حولها إلى مسجد ، بينما يعرف تاريخ الحكومات الأخرى أمثلة كثيرة منع فيها المسلمون من ممارسة شعائرهم ، فلقد هدمت المساجد في الأندلس كلها وحولت إلى كنائس ، ومنع المسلمون في بلاد كثيرة من الجهر باسلامهم أو الاحتفاظ به بينهم وبين أنفسهم . ان تاريخ الاسلام يشرف المسلمين في تسامحهم ، ويصفع كل من يتجرأ على أن يوجه للمسلمين تهمة الوقوف أمام حرية ممارسة الشعائر الدينية ، ولقد بلغ الاسلام في سماحته أن جعل من حق زوجة المسلم اليهودية أو النصرانية أن تذهب إلى الكنيسة أو إلى المعبد ، ولم يسمح لزوجها أن يمنعها من ذلك .

أما حرية أصحاب الأديان الأخرى في ممارسة ما يبيحه لهم دينهم من طعام أو شراب أو غيره ، فقد بلغ الاسلام الذروة في هذا المجال ، فقد منع أن يقتل لهم خنزير لأنهم يأكلونه مع أن الاسلام يحرم على أتباعه أكل لحم الخنزير ، ومنع أن تراق لهم خمر لأنهم يشربونها مع أن الاسلام يحرم على أتباعه شرب الخمر ، فإذا أراق مسلم لمسلم خمراً أو قتل له خنزيراً لم يكن عليه شيء وإذا أراق لنصراني خمراً أو قتل خنزيراً كان عليه أن يدفع له ثمنه ، فهل بلغ دين أو نظام آخر مثل هذه القمة في التسامح وإطلاق الحريات ؟ .

---

١ – آل عمران ٢٠ .

وقد ترك الاسلام لأهل الأديان الأخرى أن يمارسوا ما يسمى بالأحوال الشخصية من قضايا الزواج والطلاق والنفقة والمواريث دون أن يتعرض لهم في ذلك أو يجبرهم على اتباع شريعة المسلمين فيها ، وذلك لأنه يحترم حرية الانسان وكرامته فأباح لهم أن يتصرفوا فيها كما يشاؤون دون أن يضع عليهم قيوداً أو سدوداً . هذا بالاضافة إلى أن الاسلام أباح لأصحاب الأديان الأخرى حرية الجدل والمناقشة في حدود العقل والمنطق والأدب وعدم الخروج على النظام ، بل لقد أمر المسلمين أن يبتعدوا عن العنف والخشونة في مناقشتهم لهم ، يتبين لنا ذلك في قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »[1] وقوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون »[2]

وقد تثار هنا قضية عقاب المرتد عن الاسلام ، ونحن لا نريد أن ندخل في نقاش حول الموضوع الذي وفاه الفقهاء حقه من البحث ولكننا نريد أن نلفت النظر إلى الأمور التالية :

١ — هناك فرق بين الخروج من الاسلام وغالباً ما يتم بشكل افرادي ، والخروج على الاسلام وهو يحصل بصورة إجماعية على الأغلب ، كالمرتدين من اليهود في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، والمرتدين من العرب أيام أبي بكر .

٢ — هناك فرق بين تحريم الفعل وبين تجريمه ، أي وضع عقوبة له .

---

١ — النحل ١٢٥ .

٢ — العنكبوت ٤٦ .

• وتأييداً لهذا الموقف المشرف للاسلام من الأديان الأخرى نثبت كلام أحد المستشرقين المنصفين : (ان المسلمين الاولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى السطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا اليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورقوهم إلى مناصب الدولة ، حتى ان هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه) .

٣ – إن جريمة المرتد ليست من جرائم الحدود وإنما هي تعزيرية ، أي انها متروكة لولي الأمر ، وهناك حديث الرسول ﷺ وعمل الصحابة على قتله .

ولا بأس أن نذكر قول ابن القيم في عقوبة المرتد ، قال : « انها مسألة لا علاقة لها بحرية العقيدة المقررة في الاسلام . وإنها سياسة قصد بها حياطة المسلمين وحياطة تنظيمات الدولة الاسلامية واسرارها من تذرع أعدائها المتربصين بها للنيل منها بادعاء الاسلام ، وقد أشار القرآن لهذا المعنى « وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون »[1] .

حرية التفكير والرأي :

أما حرية التفكير والتعبير عن الرأي ، فقد كان للاسلام القدح المعلى في اقرارها والتأكيد عليها ، يتبين لنا ذلك من القيمة الكبيرة التي أنزلها الإسلام للعقل والعلم ، فبالعقل يتميز الانسان عن غيره من الحيوانات ، وبالعقل يستطيع أن يفكر ويحصل العلم ، وإذا تخلى العقل عن وظيفته فيهما فقد تخلى الانسان عن أهم صفة من صفاته .

والآيات التي تنتهي بكلمة يعقلون أو يعملون أو يتفكرون أو يتدبرون ، كثيرة جداً ، ومثلها الآيات التي تحض على النظر والتدبر والتفكير ، فالاسلام يجعل من التفكير والتأمل طريقته المثلى لمعرفة الله وخشيته والاستمساك بشرعه والوقوف عند حدوده ، وليس من المعقول أن يتم هذا كله إلا في ظل حرية واعية للعقل في تفكيره وفي التعبير عن هذا التفكير .

وهكذا جاء الاسلام ليطلق العقل من إساره ويضع عنه الأغلال التي عطلته زمناً طويلاً ، يقول الله تعالى : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » ويقول :

---

١ – أنظر في أحكام المرتد ، رسالة جامعية قيمة للأستاذ نعمان السامرائي .

«أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء» [1] ففي الآيتين دعوة للعقل إلى النظر والتفكير دون حدود ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة » [2] ولقد بلغ الاسلام في الدعوة إلى حرية التفكير حداً ينعى فيه على الإيمان التقليدي ، الايمان الذي يقوم على تقليد الآباء والأجداد ، لأن مثل هذا الايمان لا يقف أمام الأعاصير ولا يستطيع أن يكون إيجابيا ، والشيء الوحيد الذي منع الاسلام التفكير فيه هو التأمل في ذات الله ، وذلك لأن ذات الله لا تحيط بها عقول الانسان القاصرة ، وأي توجيه للطاقة الفكرية نحو هذا الموضوع يعتبر مضيعة للطاقات الانسانية في غير جدوى ، وللعقل في آثار الله تعالى في الكون ، ما يغنيه عن التفكير في ذاته تعالى .

وإذا كان الاسلام قد أطلق حرية التفكير فإنه من الطبيعي أن يتبعها بحرية التعبير عن هذا الفكر بشتى أنواع التعبير ، أي سواء كان تعبيراً باللسان أو بالقلم ، وهذا ما يسمى بحرية الرأي .

ولقد حض الرسول الكريم أصحابه على أن يقولوا الحق مهما كانت الظروف ، وان لا تأخذهم في التعبير عما يعتقدونه من الصواب لومة لائم وأن لا يخافوا فيه أحداً إلا الله ، لذلك يقول : « الساكت عن الحق شيطان أخرس » . وحتى لو أن الرأي الذي سيقوله المسلم سيغضب حاكماً شديدا قاسياً فإن الرسول يأمره أن يقوله ولو قتل دونه ، ويبشره بالدرجات العلا اذا صدع برأيه الحق « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله » .

ولقد كان من نتيجة هذه الدعوة إلى حرية الرأي والجهر بالحق ، أن المسلمين ما كانوا يخشون أن ينبهوا على الخطأ حين يجدونه ، وان يناقشوا أولياء أمورهم . فإما أن يكون رأيهم الصواب فيعدل وليّ الأمر عن خطئه أو يقنعهم وليّ الأمر بصحة رأيه وموقفه .

---

١ – الأعراف ١٨٥ .

٢ – البقرة ٢١٩ ، ٢٢٠ .

فقد حدث أن وقف عمر يتكلم في المسلمين بعد أن وزع برداً لم تكف المسلم المتوسط ليخيط منها ثوباً ، وكان عمر يلبس ثوباً منها وهو رجل طويل ، وعندما قال للمسلمين « اسمعوا وأطيعوا » قال أحدهم لا سمع ولا طاعة ، ولما سأله عمر عن السبب ، تساءل كيف استطاع عمر أن يخيط ثوباً من البرد وهو رجل طويل ، هل لأنه أخذ أكثر من ثوب وتميز على المسلمين ، فلما طلب عمر إلى ابنه عبد الله أن يخبرهم كيف خاط ثوبه ، وأخبرهم هذا بأنه تنازل عن نصيبه لأبيه ، قال ذلك المسلم العادي : « الآن سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين » .

بل لقد كانت المرأة المسلمة تعبر عن رأيها أمام المحاكم بمنتهى الحرية ، ويضطر الحاكم إلى أن يعود إلى رأيها اذا وجد أنه هو الحق ، فقد أراد عمر أن ينهى عن الغلو في المهور فقالت له المرأة : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » [1] فقال عمر : إن كل الناس أعلم منك يا عمر ، حتى النساء ، أصابت امرأة وأخطأ عمر ، وعاد عما كان عزم عليه .

وكان من نتيجة هذه الحرية أن سلك العلماء والمفكرون السبل التي يريدونها ، وطرقوا الدراسات التي يرغبونها ، لا يقف أمامهم الاسلام أو الدولة المنبثقة عنه ، وأنتج هذا ازدهار العلوم والثقافة ، وامتلاء المكتبة الإسلامية بالذخائر الثقافية المختلفة من شتى العلوم والفنون في الفلسفة والمنطق ، والتوحيد والأصول والفقه والتصوف والطب والكيمياء والطبيعة والهندسة والرياضة وغير ذلك ، مما دفع بالانسانية خطوات كبيرة إلى الأمام ، وكان أساساً في إقامة النهضة الأوروبية الحديثة .

إن الشيء الوحيد الذي حرمه الاسلام هو الدعوة إلى اضعاف الدين والخلق ، أو الترويج للإلحاد والزندقة ، ولا يشك عاقل أن أي دعوة لإضعاف الدين أو القضاء على الخلق أو ترويج الكفر والإلحاد والزندقة دعوة خبيثة يجب مصادرتها والحجز عليها .

---

١ – النساء ٢٠ .

ولو أننا تتبعنا تطبيق هذا المبدأ من الناحية العملية نلاحظ ما يأتي :

١ ــ انه فيما يتعلق بالأمور ذات الصبغة الدينية أو الشرعية فإن حرية الرأي كانت مكفولة بصورة عامة منذ ظهر الاسلام إلى أن أقفل باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري ، اذا استثنينا حوادث قليلة منها موقف الخليفة المأمون من موضوع خلق القرآن .

٢ ــ وفيما يتعلق بالصبغة السياسية فقد كانت هذه الحرية مكفولة إلى حد بعيد وقد ذكرنا أمثلة على ذلك . ونشير إلى مثال هام نقتبسه من خلافة عليّ رضي الله عنه ، ذلك أنه عندما انشق عليه الخوارج وكانوا حوالي ثمانية آلاف ، أرسل اليهم ابن العباس ليناظرهم ، فاستطاع أن يقنع الكثيرين منهم بالحجة حتى عاد أربعة آلاف ، أما من تبقى فقد أرسل اليهم عليّ رضي الله عنه كتابا يقول فيه : (كونوا حيث شئتم ، بيننا وبينكم ألا تسفكوا دماً حراماً ولا تقطعوا سبيلاً ولا تظلموا أحداً ، فإن فعلتم نذر الحرب معكم ... لا نبدأ بقتال ما لم تحدثوا فساداً) .

٣ ــ أما حرية الرأي في المسائل العادية وخاصة في الميدان العلمي ، فقد كانت مكفولة بصورة تامة ، حتى أن المؤرخين كانوا يقولون ما يريدون في ظل الحكومات التي يخالفونها الرأي والاتجاه .

الحرية السياسية والمدنية :

وبالاضافة إلى الحرية الدينية وحرية التفكير والرأي ، فقد دعا الاسلام إلى الحرية السياسية والحرية السياسية تتضمن :

أولا : المشاركة في الحكم واختيار الحاكم .

ثانياً : مراقبة أعمال الحكام ونقدها وابداء الرأي فيها .

أما من حيث المشاركة في الحكم وفي اختيار الحاكم ، فإنه نتيجة طبيعية

لتقرير الاسلام لقاعدة الشورى كأساس تقوم عليه العلاقة بين الشعب والحاكم ، فالشعب المسلم يشارك في اختياره للحكم عن طريق البيعة ، وإقرار أهل الحل والعقد ، او عن طريق انتخاب الأمة له ، وفي طريقة اختيار الخلفاء الراشدين ما يدلنا على أهمية مشاركة الشعب وأهل الحل والعقد ، فقد ترك الرسول المسلمين دون أن يعين عليهم خليفة ، وتداول المسلمون بعد وفاة الرسول في اختيار خليفة له وأدلى كل منهم برأيه ، ودافع عنه بالحجة والمنطق ثم أقروا جميعاً اختيار أبي بكر للأمر ، وقبل أن يتوفى أبو بكر استشار المسلمون فيمن يكون عليهم من بعده ، وأخذ رأي الصحابة وأهل الحل والعقد والأمراء والقواد ، وعندما اتفقت آراؤهم على عمر بن الخطاب كتب له عهداً بذلك ، فكان ذلك العهد ممثلاً لإرادة المسلمين ورأيهم . وترك عمر بن الخطاب الأمر شورى للمسلمين على أن يكون اختيار الخليفة من بين ستة يجمع المسلمون على تقديمهم ، وأجرى هؤلاء الستة ومن يمثلهم مشاورات واسعة حتى أقرت الأكثرية اختيار عثمان بن عفان وهكذا كان المسلمون في جميع هذه الحالات يبايعون الرجل المختار بيعة عامة إعلانا عن رأيهم وعن إقرارهم ومشاركتهم .

واذا ما اختير الحاكم فإن عليه أن يرجع إلى الأمة ويأخذ رأيها في شؤون الدولة وخاصة الخطيرة منها ، ويشبه أن يكون شأن ولي الأمر شأن الوكيل ، والوكالة تقتضي أن يكون تصرف الحاكم مقيداً بما أنزل الله ، وهكذا يكون الحكم بما أنزل الله واستشارة الأمة أهم القواعد التي تؤمن حرية المشاركة في ايجاد الحاكم الصالح .

أما حرية إبداء الرأي ومراقبة الحاكم المسلم فقد أشرنا إلى بعض منه حين تحدثنا عن حرية التفكير والتعبير ، ونضيف إلى ذلك أن الحكام المسلمين كانوا هم الذين يؤكدون على هذا المعنى ويطلبون من المسلمين أن يمارسوا هذا الحق ، فقد خطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد البيعة له فقال :

« يا أيها الناس : إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق

فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسددوني ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم » .

« وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « اتق الله يا أمير المؤمنين ، فاعترضه آخر وقال له : تقول لأمير المؤمنين اتق الله ، فقال عمر رضي الله عنه ، دعه فليقلها فإنه لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها منكم . »

وخطب رضي الله عنه يوماً فقال : « أيها الناس ، من رأى فيّ اعوجاجاً فليقومه » فقال له أحد الأعراب : والله يا أمير المؤمنين لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا هذه . فقال رضي الله عنه : « الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه إذا اعوج » .

حتى لقد بلغت الحرية في النظام الاسلامي حدّاً جعلت الرسول عليه الصلاة والسلام يترك المنافقين دون عقوبة مع شغبهم عليه ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « لما كان يوم حنين ، آثر الرسول ﷺ ناساً في القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك ، وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة ، فقال رجل والج : ان هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله ، فقلت والله لأخبرن رسول الله ﷺ ، فأتيته فأخبرته بما قال ، فتغير وجهه حتى كان كالصرف [1] ثم قال : فمن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ، ثم قال : يرحم الله موسى قد كان أوذي بأكثر من هذا فصبر) .

وكذلك فعل عمر ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : (قدم عيينة بن حصن فنزل على أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنهم ، وكان القراء أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً كانوا أم شباناً . فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي ... لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه ، فاستأذن له عمر ، فلما دخل قال : « هيه يا ابن

---

١ – وهو الصبغ الأحمر .

الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل » فغضب عمر رضي الله عنه حتى هم أن يوقع به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين ، ان الله تعالى قال لنبيه : « خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين » [1] وان هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها .

ولا شك أن هذه المرتبة من السماحة وترك الحرية للناس ندر أن وصل اليهما مجتمع في ظل أي نظام كان . ولم يسمح الاسلام بأن تقيد حرية أي فرد ، الا اذا كان في هذا التقييد مصلحة حقيقية للمجتمع ، لا تحقيق هوى الحاكم أو إشباع حب الانتقام في نفسه .

ويتبع الحرية السياسية عادة ، ما يسمى بالحرية المدنية ، وهي حرية الانسان في شخصيته وقدرته على المعاملة الحرة مع سائر الناس ، وإنشاء العقود وإبطالها في حدود القوانين المرعية ، وفي مقابل هذه الحالة ، حالة الرق التي عرفتها البشرية وما تزال على صور وأشكال مختلفة .

وقد كان موضوع الرق مجالاً واسعاً للافتراء على الاسلام والدس على المسلمين ، بحجة أن الاسلام يدعو إلى تثبيت نظام الرق . وللجواب على ذلك لا بد من استعراض نظام الرق من الناحية التاريخية ، لنعلم أنه وجد قبل الاسلام وبعده ، ثم لا بد من معرفة موقف الاسلام النظري والعملي منه حتى نعلم أن الاسلام شرع العتق ولم يشرع الرق ، وأنه يدعو إلى تحرير كل نوع من أنواع العبودية بجميع صورها وأشكالها ، سواء كانت رقاً فردياً أو كانت رقاً جماعياً كالاستعمار . والمجال هنا لا يتسع لعرض موسع ، ولكن يكفي أن نشير إلى أن اليهودية — بصورتها المحرفة أقرّت الرق وأكدت عليه وأوجدت السبل المتعددة للحصول على الرقيق ، وكذلك فإن المسيحية — بصورتها المحرفة — تجعل من طاعة العبد لسيده طاعة لله . وتحضه على ذلك ولا تفتح سبيلاً للعتق أمامه [2] .

---

١ — الأعراف : ١٩٩ .

٢ — جاء في رسالة بولس إلى أهل أفسس :

كذلك فقد أقر كبار فلاسفة اليونان وغيرهم — كأفلاطون وأرسطو — حالة الرق واعتبروها حالة من الحالات التي خلق الناس عليها بالطبيعة ، ولم يبذلوا أي جهد لتحرير الرقيق .

وكان العالم المعاصر للرسول ﷺ بأجمعه يعتبر نظام الرق أمراً لا مجال للنقاش فيه ، ويعده أحد مقومات المجتمع الأساسية .

فجاء الاسلام ليخرج على هذا الاجماع وليعلن كرامة الانسان والمساواة الكاملة بين الناس جميعاً ، جاء ليهيء الجو الذي يسمح بتحرير الرقيق عندما يهيء النفوس لتقبل مبدأ المساواة والحرية الانسانية . ثم ليضع النظام الذي يؤدي إلى تحرير الرق نهائياً ، وقد كان هذا النظام يعتمد على أربعة أسس :

١ — الأساس الفكري ويتمثل بالمناخ الصالح لإشاعة قيم الاسلام كما ذكرنا .

= « أيها العبيد ، أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضي الناس ، بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أنه مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبداً كان أم حراً » .

وفي الإصحاح العشرين من كتاب التثنية من العهد القديم :

« حين تقترب من مدينة لكي تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، وتستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا الرب إلهك أيدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، أما مدن الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما ، بل تحرمها تحريماً » .

وفي الإصحاح الثالث عشر من كتاب التثنية :

« فضرباً تضرب بحد السيف وتحرم بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف ، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار ، المدينة وكل أمتعتها للرب إلهك ، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعده » .

قارن بين هذا الكلام وقوله تعالى « فإما مناً بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » .

٢ ــ القضاء على الروافد التي تسبب الرقيق ، وقد كانت كثيرة قبل الاسلام ، فلم يبق الاسلام منها الا على واحد هو الحرب .

٣ ــ الاكثار من المنافذ التي تؤدي إلى تحرير الرقيق .

٤ ــ ترغيب الناس بتحرير الأرقاء وجعله تعبيراً عن طاعة الله وتقواه .

وقد كان الرسول ﷺ خير قدوة للمسلمين في هذا الموضوع ، حين آخى بين عمه حمزة وبين زيد مولاه ، وحين زوج زيداً ابنة عمته زينب وهكذا ... [1]

١ ــ تكلم كثير من المفكرين المسلمين المعاصرين في هذا الموضوع ، ولاستيفائه ، يمكن الرجوع إلى :
حقائق الإسلام للأستاذ العقاد ، وحقوق الإنسان في الإسلام للدكتور علي عبد الواحد ، وشبهات حول الإسلام للأستاذ محمد قطب .

المساواة

كانت الإمم قبل الاسلام وبعده إلى أواخر القرن الثامن عشر أي حتى عهد الثورة الفرنسية تضع فروقاً عظيمة بين طبقات الأمة وافرادها ، بل لقد كانت أديان كثيرة تقر التمايز بين الناس وتجعل من نظام الرق والطبقات أمراً محتماً على البشرية . وما تزال النظرة العنصرية والعصبية تدعو إلى التمايز بين الطبقات والاجناس ، وقد زعم اليهود انهم شعب الله المختار وأنهم أحباء الله وأقرباؤه ، ففرقوا في تشريعاتهم بين اليهود وبين غيرهم ، وادعت النازية أن الناس يترتبون على طبقات جنسية ، وأن العنصر الجرماني يقف على رأس هذه الأجناس . وإن نظرة على الأمم التي تدعي التقدم والحضارة والدعوة إلى وحدة الجنس البشري تدلنا على أن فكرة التمييز وانعدام المساواة ما تزال راسخة في كثير من مناطق العالم ، فالزنوج في أمريكا لا يتساوون مع البيض فيها مع انهم ينتسبون لدولة واحدة ؛ وما يزال الأبيض الامريكي يأنف من مجالسة الزنجي أو مساكنته أو معاشرته ، والبيض في أفريقيا ما يزالون ينظرون إلى الزنوج باحتقار ويعتبرونهم مخلوقات من الدرجة الثانية أو الثالثة .

أما الاسلام فقد قرر المساواة بين الناس ، وأعلن وحدة الجنس البشري منذ أربعة عشر قرناً ، وضمن ذلك عن طريق تنمية وجدان الفرد وتحرير ضميره ، بالاضافة إلى وضع التشريع المناسب الذي يؤمن تحقيق المساواة الحقة ، وقد

أعلن الاسلام القضاء على نظام الاجناس والطبقات والطوائف ، وخلف وراءه كل ما يظنه الناس من أسباب التمايز وعدم المساواة كالجنس والطبقة واللون والغنى ، إلى غير ذلك .

« لقد جاء الاسلام ليقرر وحدة الجنس البشري في المنشأ والمصير ، وفي المحيا والممات ، وفي الحقوق والواجبات ، أمام الله والقانون ، وفي الدنيا والآخرة ، لا فضل الا للعمل الصالح ولا كرامة الا للأتقى ، وكان تقرير الاسلام هذا وثبة للانسانية لم يعرف التاريخ لها نظيراً ، ولا تزال إلى هذه اللحظة قمة لم يرتفع اليها البشر أبداً ، ذلك ان ما فرضته القوانين البشرية نظرياً في الثورة الفرنسية وما تلاها ، حققه الاسلام عملياً في صورة أعمق وأعلى من قبل ذلك بقرون . » [1]

فالناس جميعاً ينسلون من مصدر واحد : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام إنّ الله كان عليكم رقيباً » [2] .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [3] والرسول يقول في آخر خطبة له « أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على أعجمي ولا أعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى » .

فاذا كان سبب التمييز متأتياً من دعوى بعض الناس أنهم من نسل إلهي ، فإن الله : « لم يلد ولم يولد » ، « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدّا ، أن دعوا للرحمن

---

١ – سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام .

٢ – النساء ١ .

٣ – الحجرات ١٣ .

ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ، إن كلُّ من في السموات والأرض [1] إلا آتي الرحمنِ عبداً، لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » .

واذا كان سبب التمييز دعوى الانحدار من دم ازرق نبيل أو دم عادي فإن القرآن ينبه الانسان إلى أصل الانسانية المشترك الواحد « ألم نخلقكُم من ماء مَهينٍ ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قَدَر معلوم ، فقدَرْنا فنعم القادرون » [2] « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » [3] . والانسان ، كل إنسان ، مخلوق من تراب ثم من نطفة ، فلماذا يتميز أحدهم على الآخر بدعوى الانحدار من دم أو جنس أشرف « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً » [4] .

ويمضي الاسلام في تعقب أسباب التفاوت والتفاضل في كل صورها وملابساتها وأسبابها ليقضي عليها جميعاً ، فالرسول محمد عليه الصلاة والسلام يعلن للناس دائماً انه بشر كسائر البشر ، وقد خاف أن ينقلب حب المسلمين له إلى تسويد أو تفضيل فنهاهم بقوله : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما انا عبدالله ، فقولوا عبدالله ورسوله » . وها هو يقف في قريش قبيلته فيقول : « يا معشر قريش لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً » .

وحين أنكر زعماءالعرب منقريش هذا المبدأ، مبدأ المساواة، وأنفوا أن يجلسوا مع بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وسواهم من عامة الناس ، وطلبوا منه أن يطردهم عنه ليحضروا مجلسه وليسمعوا وعظه ، رفض الرسول ذلك ، فعرضوا عليه أن يجعل لهم يوماً ولاولئك يوماً ، وكاد الرسول أن يستجيب لرغبتهم

---

١ – مريم ٨٨ – ٩٥ .
٢ – المرسلات ٢٠ – ٢٣ .
٣ – الطارق ٥ – ٧ .
٤ – فاطر ١١ .

طمعاً باستمالتهم للاسلام ، وعندئذ نزل الوحي يذكر الرسول « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من المظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة [1] » . وحين أصابت محمداً الانسان لحظة ضعف بشري فانصرف عن الرجل الفقير ابن أم مكتوم إلى الوليد ابن المغيرة سيد قومه ، عاجله العتاب الشديد الذي يشبه التأنيب ليرد للمساواة المطلقة معاييرها الكاملة « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ... » [2]

وتخاصم مرة أبو ذر الغفاري وعبد زنجي في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام فاحتد أبو ذر على العبد قائلاً : « يا ابن السوداء » « فغضب النبي ﷺ وقال « طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو بعمل صالح » .

وكثيراً ما ولى الرسول على المدينة بلالاً واصله مملوك اشتراه أبو بكر وأعتقه — وفيها كبار الصحابة والمهاجرين — كما أنه ولى باذان الفارسي على اليمن ، ولما مات ولى ابنه مكانه . وإن نظرة على التاريخ الاسلامي ، تاريخ القادة والأمراء وقواد الجيوش ، وتاريخ الثقافة ، لتؤكد لنا التطبيق الصحيح للمساواة ووحدة الجنس البشري ، فلقد ساهم في حركة الفتوح والتنظيم والثقافة جميع العناصر الجنسية ، من فرس وروم وعرب وهنود وأحرار وعبيد وبيض وسود ، بصورة لا تراها في تاريخ أي أمة غيرها أو ثقافة أخرى .

إن للجنس البشري كله في الاسلام كرامته التي لا يجوز أن تستغل ، واذا كان يقرر المساواة ، فإنما يفعل ذلك تحقيقاً لكرامة الانسان التي تستمد من انسانيته : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات

---

١ — الأنعام من ٥٢ — ٥٤ .

٢ — أنظر سورة عبس من الآية ١ حتى الآية ١٠ .

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً »[1] وكان تكريمه لهم بجنسهم البشري الموحد لا بأشخاصهم ولا بعناصرهم ولا بقبائلهم ، فالكرامة للجميع على سبيل المساواة المطلقة ، كلهم لآدم، واذا كان آدم من تراب واذا كان آدم مكرماً عند الله ، فابناؤه جميعاً سواء في ذلك ، هذا أو ذاك .

ولسنا الآن في سبيل تفصيل ما وضعه الاسلام من تشريعات لضمان حق المساواة ، فلقد حدد الحقوق والواجبات المتساوية ، وجعل الناس سواسية أمام التشريع والقانون ، ولقد أعلن الرسول سيادة تشريع المساواة بقوله : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » وحين جاء أشراف قريش يستعطفونه بشأن المرأة المخزومية التي كان سيقام عليها الحد نبههم الرسول إلى مبدأ المساواة

وبين لهم أنما أهلك الامم من قبلهم ، أنهم اذا سرق فيهم الغني تركوه واذا سرق الفقير قطعوا يده .

١ – الإسراء : ٧٠ .

العـــدالة

العدالة من المثل الأساسية التي جاء الاسلام ليقررها بين بني الانسان ، وقد كان طبيعياً من الاسلام الذي يحرص على كرامة الانسان ، ووصول حقه اليه ، فالعدالة ضرورية لإقامة الحق ، وضمان العدل يشيع الطمأنينة وينشر الأمن ويشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض،ويجعل الروابط بينهم قائمة على التوازن والانسجام والاخاء .

ومن هنا نجد آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول مليئة بالدعوة للعدالة وإحقاق الحق محذرة من الظلم والبغي ، ومحرمة له تحريماً قاطعاً ، ومتوعدة عليه بالعقاب الغليظ ....

ولقد أعلن القرآن : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهي عن الفحشاء والمنكر والبغي » [1] .

إن الله ــ وقد جعل العدل من أوصافه ــ ما أرسل رسله ولا أنزل كتبه ولا كلف الناس بالشرائع الا لإقامة العدل والحق ، « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » [2] . والسموات والأرض انما قامتا

---

١ ــ النحل ٩٠

٢ ــ الحديد ٢٥ .

بالعدل « والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألاّ تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » . [1] واقامة العدل احدى وظائف الرسول : «وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم » [2] .

أما الظلم فإنه أمر حرمه الله تعالى على نفسه وحرمه على عباده ، يقول تعالى : « وما الله يريد ظلماً للعباد » . [3] وفي الحديث القدسي : « يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » . وقد نهى الرسول عن الظلم وجعله ظلمات يوم القيامة فقال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

والعدل الذي ينادي به الاسلام عدل مطلق يساوي بين الناس : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» [4] . ولا تعتبر العداوة التي تقوم بين الناس مبرراً لقيام الظلم أو ترك العدل : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » [5] . حتى القول ينزه الله عباده ألا يعدلوا فيه فيقول : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون » [6] .

والعدل يوصف به الفرد كما يوصف به المجتمع ، فالعدل في الأفراد هو إعطاء كل ذي حق حقه ، ومن آفاته التحيّز ، والمجتمع العادل هو المجتمع الذي له من نظمه وقوانينه ما يسهل لكل فرد ان يصل إلى حقه وأن يرقى على قدر استعداده ، والتحديد الدقيق لعلاقة الفرد بالمجتمع عدل أيضاً وأساس العدل

---

١ – الرحمن ٧ – ٩ .
٢ – الشورى ١٥ .
٣ – غافر ٣١
٤ – النساء ٥٨ .
٥ – المائدة ٨ .
٦ – الأنعام ١٥٢ .

التجرد عن الهوى وعدم التأثر بأي شيء الا الحق .

هذا وللعدل مجالات كثيرة سنرى تفصيلها ، لكننا نودّ أولاً أن نشير لما يضعه من مبادىء ، لذلك كان العدل من أسس الحكم ودعامته القوية ، يقول أبو بكر رضي الله عنه في خطبته الأولى بعد أن ولي الخلافة ، تلك الخطبة التي جعلها دستور حكمه : « الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله » . وكان عمر لحرصه على أن يحكم عماله وولاته بالعدل ، يخرج مع من يستعملهم يشيعهم ويذكر لهم انه لم يستعملهم على الناس لينالوا من أبشارهم وأموالهم وأعراضهم ، وانما ليعلموهم كتاب الله وسنة رسوله ، وليقضوا بينهم بالحق ويقسموا بينهم بالعدل . وكان يقول للناس : « من ظلمه عامله بظلامة فليرفعها حتى أقصّه منه » وحين سأله عمرو بن العاص قائلاً : يا أمير المؤمنين أرأيت إن أدب الأمير رجلاً من رعيته أتقصه منه ؟ فقال عمر : ما لي لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه .

والعدل الذي يتطلبه الاسلام عدل في الحكم : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » [1] . والامام العادل أحد سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله ، وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله .

وهو عدل في الضعفاء وتسوية بين المتخاصمين مهما اختلفت منزلتهم أو تباينت طبقتهم ، كما أنه عدل في توزيع الحقوق والواجبات ، وعدل في اقامة الحدود والقصاص ، وعدل بين الزوجات إن كن أكثر من واحدة ، وعدل في القول والشهادة والكتابة ، وعدل بين طوائف المسلمين إذا تخاصمت : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل

---

١ – النساء ٥٨ .

وأقسطوا إن الله يحب المقسطين »[1] .

ان العدل في الاسلام عدل كامل مطلق حتى مع الخصوم والاعداء كما ذكرنا ، وبالتالي فهو أحرى أن يكون عدلا مع الذميين والمعاهدين ، وقد قال الرسول ﷺ « من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » وقال : « ألا من ظلم معاهداً أو تنقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة » ذلك لأن غير المسلمين متى أقاموا بديار الاسلام صار لهم ذمة الله وذمة رسوله ، ومن حقوقهم رعاية العدل معهم في كل حال .

العـــدل في الحكم :

وشواهده من القرآن والحديث كثيرة سبق أن ذكرنا بعضها ، فالله تعالى يأمر كل حاكم أن يحكم بين الناس بالعدل ولا يتبع الهوى فيضل عن السبيل القويم ، ولقد بين الرسول ﷺ أن العدالة تمكن للحاكم أمره ، فإذا ما ترك العدل بين الناس اختل نظام الحكم وزالت الدولة « ان هذا الأمر في قريش ما إذا استرحموا رحموا وإذا حكموا عدلوا وإذا قسموا أقسطوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

ولا يتحقق العدل في الحكم إلا بايصال كل ذي حق حقه والحكم بمقتضى ما شرع الله من أحكام ، ولعلنا اذا اردنا أن نتعرف على صورة للمثل الأعلى للحاكم العادل أن نجدها في هذه الرسالة العظيمة التي بعث بها الحسن البصري إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، قال : « اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ، ومصدر كل حائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومَفزَع كل ملهوف .

---

١ – الحجرات ٩ .

والامام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحفيّ على ولده ، يسعى لهم بعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدّخر لهم بعد مماته .

والامام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأم الشفيقة البرّة ، الرحيمة بولدها حملته كرهاً ووضعته كرهاً وربته طفلاً ، تسهر لسهره وتسكن بسكونه ، رضعه تارة وتفطمه تارة ، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته .

والامام العادل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم .

والامام العادل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده .

والامام العادل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم .

فلا تكن يا أمير المؤمنين ، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف اذا أتاها من يليها ، وأن الله جعل القصاص لعباده ، فكيف اذا قتلهم من يقتص لهم .

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له وما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه رقادك ، ويفارقك احباؤك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه » . [1]

---

١ - عبس ٣٤ - ٣٦ .

واذكر يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل .

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلية ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات بإذهاب طيباتك في آخرتك .

ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحيّ القيوم .

إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهي من قبلك فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابي عليك كمداوي محبه يسقيه الادوية الكهربية لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

وقد أثبتنا هذا الكتاب لأنه يعطينا صورة واضحة عما يتطلبه الناس في الحاكم العادل . وأظننا في غنى عن ذكر أمثلة عن التطبيق العملي للعدالة في الحكم ، فان التاريخ الاسلامي وخاصة تاريخ الخلفاء الراشدين زاخر بالغرائب التي تكاد لا تصدق عن تحري العدل واقامته بين الناس [1] .

العـــدل في القضاء :

القضاء مؤسسة هامة في الدولة عليها يعتمد المواطنون في الوصول إلى حقوقهم

---

١ — عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة ، فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي ، فقال أمط عن الطريق ، فلما كان في العام المقبل لقيني فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله ، فأعطاني ستمائة درهم وقال : استعن بها على حجك ، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك ، فقلت يا أمير المؤمنين : ما ذكرتها ، قال : وأنا ما نسيتها .

والانتصاف من بعضهم ، وعن طريقها تقام الحدود وتتحقق العدالة .

ولقد حرص الاسلام على أن يعطي هذه المؤسسة الاستقلال والصلاحية الكافيين لضمان إحقاق الحق وتأمين العدل ، وقد اتفق فقهاء المسلمين على أنه ينبغي للقاضي أن يسوي بين الخصمين :

١ ــ في الدخول عليه

٢ ــ والجلوس بين يديه

٣ ــ والاقبال عليهما

٤ ــ والاستماع لهما

٥ ــ والحكم عليهما

وفي رسالة بعث بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الاشعري ، يضع الفاروق عمر أسس القضاء النزيه العادل ، وسنثبتها في هذا المقام لأهميتها في الدلالة على ما نريد بيانه من وجوب تحقيق العدل في القضاء الاسلامي ، فقد جمع فيها عمر جمل الأحكام ، واختصرها بأجود كلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، ولا يجد محقق عنها معدلاً ولا ظالم عن صدورها محيصاً ، قال فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبدالله بن قيس (يعني أبا موسى الأشعري) سلام عليك ، أما بعد :

فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل .

الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الاشباه والأمثال ، فقس الامور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي اليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، والا استحصلت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو نسب ، فإن الله تعالى تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان .

وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر .

فمن صحت نيته وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل ورزقه وخزائن رحمته والسلام » .

والعدل في القضاء يقتضي العدل في التنفيذ وإقامة الحدود ، فالأحكام اذا صدرت ولم يتهيأ لها أن تنفذ كانت أدعى إلى اجتراء الناس على الحق وخروجهم على جادة الصواب ، والحدود تقصد إلى حفظ الدين والعرض والمال والنفس والعقل ، لذا كان من الطبيعي أن يشير الرسول إلى ضرورة التسوية بين الناس في تنفيذ أحكام القضاء والحدود عليهم ، فيقول : « انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه واذا سرق الشريف تركوه ، والذي نفسي بيده لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » .

العدالة في تقرير الحقوق والواجبات وفي اقامة العدالة الاجتماعية :

ان الاسلام ينظر إلى الناس بنظرة العدل والتساوي لأنهم من أصل واحد ،

فليس لأحد حق مكتسب منذ الولادة ، والفرص متكافئة أمام الجميع دون تمييز لأحد على أحد بسبب جنسه أو لونه . ومن صور هذا العدل العام في تقرير الحقوق والمحافظة عليها ، حق التعليم لجميع المواطنين ، وحق الحياة ، لأن الدم البشري محرم في كل حال ، ولا يجوز سفكه الا بالحق ، وحق التملك ما دام يتم بطريق مشروع ، وحق حرية التصرف في حدود الشرع ، وحق حرية الفكر والتعبير فيما لا يخالف أسس الدين .

ولنا عودة إلى تفصيل هذا الموضوع أثناء حديثنا عن العدالة الاجتماعية في الاسلام .

خصائص الثقافة الإسلامية *

إن المصدر الرئيسي للثقافة الاسلامية هو القرآن الكريم ، وقد بقي هذا المصدر صافياً أمداً طويلاً ، وحرص الرسول عليه الصلاة والسلام في تربيته للمسلمين على أن لا يختلط بغيره من المصادر « لأنه كان يريد أن يصنع جيلاً خالص القلب ، خالص العقل ، خالص التصور ، خالص الشعور ، خالص التكوين من أي مؤثر آخر »[1] .

ويمكن أن توصف الثقافة الاسلامية من هذه الناحية بأنها ربانية النزعة ، لأن تصورها للوجود بكل خصائصه ومقوماته مستمد من الله ، تلقاه الإنسان كاملاً بخصائصه هذه ليتكيف به ويطبق مقتضياته في حياته ، ويعني هذا أن المسلم يعتقد أن الله الذي خلق هذا الكون هو الذي خلق الإنسان ، وكل ما في هذا الوجود يسير على سنة الله مسخراً لصالح الإنسانية ، وهكذا يتحدد مكان الإنسان في هذا الكون : إنساناً مستخلفاً من الله في أرضه .

إن صفة الربانية هذه تقف في مقابل صور الثقافة المادية ، وبينما تهتم الثقافة التي تبنى على أساس من الإيمان بالله بغايات الأشياء وأصولها البعيدة ،

---

* – نشر هذا البحث في كتاب « الثقافة الإسلامية » للمؤلف .

١ – سيد قطب : المستقبل لهذا الدين .

فإن الثقافة المادية لا تهتم إلا بأسبابها ومظاهرها . ويترتب على ذلك أن الفكر الاسلامي لا ينظر إلى الحياة على أنها الغاية الأسمى والمثل الأعلى ، وإنما على أنها مرحلة لا بد من اجتيازها بمنتهى الإيجابية والإتقان . وهكذا فإن المسلم في أوج قوته وسلطته وسيادته مؤمن بربه خاضع له لا يداخله الغرور الذي داخل الأوروبي حين يسرت له أسباب الحياة وسخرت له الطبيعة قواها .

ومثل هذه الثقافة تجمع بين الغايات والوسائل ، وبين العلم والإيمان ، وكونها تستمد كيانها من مبادىء الدين لا يعني تخليها عن العقل والعلم ، فاعتماد الثقافة الاسلامية عليهما واحتفاؤها بهما أمر لا يحتاج إلى بيان ، فالدين ليس أبداً بديلاً عن العلم والحضارة ولا عدواً لهما وإنما هو إطار ومحور ومنهج لهما في حدود اطاره ومحوره الذي يحكم شؤون الحياة ، إن من الخداع أن نضع كل ما يتصل بالمنهج الإلهي في كفة والابداع الانساني في عالم المادة في كفة أخرى ثم نطلب إلى الانسانية الاختيار ، الاختيار بين المنهج الإلهي في الحياة والتخلي عن كل ما أبدع من الإيمان ، وبين الأخذ بثمار المعرفة الانسانية المجردة عن منهج الله ، إن وضع المسألة ليس هكذا أبداً — كما يقول الاستاذ سيد قطب — فالمنهج الإلهي ليس عدواً للابداع الانساني وإنما هو منشىء لهذا الابداع وموجه له الوجهة الصحيحة كي ينهض الانسان بمقام الخلافة في الأرض ، هذا المقام الذي منحه الله له وأقدره عليه ووهبه من الطاقات المكنونة ما يكافىء الواجب المفروض عليه فيه وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه ، ونسق بين تكوينه وتكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع ... على أن يكون الابداع نفسه عبادة لله ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام وعلى أن يتقيد بشروط الخلافة وهي أن يعمل ويتحرك في نطاق ما يرضي الله » .

إن شقاء الانسانية ، في انفصال العلم عن الايمان وانفصال المؤسسات الفكرية عن الأخلاق والغايات الصالحة . وقد افتتنت الذات الأوروبية بما حررت من قوى فاستسلمت لسحر عبقريتها ، ولكن هذه الذات قد قامت — كما يقول مالك بن نبي — بدور الساحر « فلقد أبدعت آلات لم تستطع

السيطرة عليها ، ثم استأنست لتلك الآلات تقودها بفعل آلي ، فصارت الحياة أرقاماً ، وأصبحت السعادة مقيسة بعدد ما لديها من وحدات حرارية وهرمونات ، وصار العصر عَصْرَكم يخضع الضمير فيه للنزعة الكمية ، كما صار عصر النسبية الأخلاقية ، فلم يعد أحد يدرك معنى الفضيلة المطلقة .. لقد مات معنى الفضيلة من الوجه الذي مات فيه مفهوم العدالة في قول أحد الأوروبيين : (إن تسوية جائرة خير من قضية عادلة) وصارت الحياة الاقتصادية إلى نفس المصير يوم وجد بعض الناس في أنفسهم الجرأة ليؤكدوا أن التجارة هي السرقة الحلال »[1] .

إن الثقافة الاسلامية باعتمادها على منابع الضمير الانساني المتصل بالله خالق هذا الكون ومدبره المطلع على الصغيرة والكبيرة وخفايا النفوس ، لا يمكن أن تسمح بنتيجة من هذا النوع ، ولا بد أن تكون الأخلاق المطلقة والمثل العليا هي مقياس الحركة والفعل والنجاح ، ولعل مقارنة بسيطة بين الحال التي وصفنا وبين وصية لعمر بن الخطاب إلى أحد قواده يشير إلى هذا المعنى ، قال : « باعد بين جنودك وبين المعصية ، فإن ذنوب الجيش أخطر عليهم من عدوهم ، وما لم ننتصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا » .

والثقافة الاسلامية إنسانية النزعة والهدف ، عالمية الأفق والرسالة ، تنظر إلى الناس بمقياس واحد لا تفسده القومية أو العنصرية أو الجنس أو اللون ، وواضح أن هذه النزعة من أثر القرآن الكريم الذي يعلن أن الناس جميعاً خلقوا من نفس واحدة من ذكر وأنثى ... إن الرابطة التي يجب أن تربط بين بني الإنسان في مفهوم الثقافة الاسلامية هي رابطة العقيدة بها يرتفع الإنسان وينخفض « وحسب هذا المفهوم يكون الوطن داراً تحكمها عقيدة ومنهاج وشريعة من الله ، وتكون الجنسية عقيدة ومنهاج حياة ، ان عصبية العشيرة والقوم والجنس واللون والارض عصبية صغيرة متخلفة ، عصبية جاهلية عرفتها البشرية في فترات انحطاطها الروحي ... »[2]

---

١ – مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي .

٢ – سيد قطب : معالم في الطريق .

وإن قيمة النفس والأهل والقوم والعشيرة والبلد والوطن والأمة والإنسانية والأبطال القوميين والانسانيين ، لا تصلح أن تكون القيمة العليا والغاية القصوى التي يجتمع عليها الناس على كر العصور ومر الأجيال ويلتف البشر حولها أبد الدهر ، ولا الهدف الأسمى الذي تسير نحوه الانسانية باستمرار ... إن الله وحده في رأي الثقافة الإسلامية هو الغاية المثلى والقيمة الخالدة والهدف الأسمى الذي يمكن أن تلتقي في رحابه الانسانية أفراداً وجماعات تستقي منه الخير والحق والعدل والقوة .

ولنسمع إلى الصوت المقابل في ثقافات العنصر والجنس والتعصب على لسان واحد من كبار مفكريها يقول رينان : « جنس واحد يلد السادة والابطال هو الجنس الأوروبي ، فإذا ما نزلت بهذا الجنس إلى مستوى الحظائر التي يعمل فيها الزنوج والصينيون فإنه يثور ، فكل ثائر في بلادنا هو بطل لم يتح له ما خلق له ، هو إنسان ينشر حياة البطولة فإذا هو مكلف بأعمال لا تتفق وخصائص جنسه ، إن الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني أو فلاح أو كائن لم يخلق لحياتنا »[1] .

وكان من نتيجة هذه النزعة الانسانية أن الثقافة الاسلامية استطاعت أن تنتظم عباقرة الأمم جميعاً ، فهي تستطيع أن تفاخر بالنوابغ الذين أقاموا صرحها من جميع الشعوب والأمم .

ومما تمتاز به الثقافة الاسلامية الشمول والتوازن ، الشمول الذي ينظر فيه الى كل جوانب الكينونة والبشرية وتوازنها وتناسقها ، كما ينظر فيه الى جميع أطوار الجنس البشري وإلى توازن هذه الأطوار جميعاً ، هذا الشمول في الثقافة الاسلامية أساسه اعتمادها على الاسلام ، والاسلام منهج حياة «منهج حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها . منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة الوجود ويحدد مكان الإنسان فيه كما يحدد غاية الوجود الانساني ، ويشمل النظم الواقعية التي

---

١ – مالك بن نبي : المرجع السابق .

تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند اليه وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر ، كالنظام الأخلاقي الذي ينبثق منه والأسس التي يقوم عليها والسلطة التي يستمد منها ، والنظام السياسي وشكله وخصائصه ، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته ، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته والنظام الدولي وعلاقاتـــه وارتباطاته» [1] .

ولا بد من الاشارة الى أن شمول الثقافة الإسلامية ميزة هامة ، هيأت لها صموداً كبيراً أمام التحديات الفكرية الأخرى ، «فالثقافة الاسلامية لم تكن قوة غالبة في إبان النشأة والظهور وحسب ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ولا بد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لا بد من تفسير لتلك القوة الغالبة لأنها كما يقول العقاد : «تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة في معترك الصراع ، والصراع وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب كانتصارها في أحوال الشدة ، ولا سيما الصمود بعد اكثر من عشرة قرون ... إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية والاجتماعية هو المزية الخاصة في الثقافة الإسلامية ، وهو المزية التي توحي الى الإنسان أنه كل شامل فيستريح من خصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين». [2]

ومن مزايا الثقافة الاسلامية ، الإيجابية الفاعلة في علاقة الإنسان بالكون والحياة في حدود المجال الإنساني ... وهذا ناتج عن أن مبادىء الاسلام لا تتمثل في مجرد مجموعة من القيود والكوابح والضوابط الرادعة ... وانما هي في صميمها قوة بناءة وحركة دافعة الى النمو المطرد ، وانطلاق الى الحركة وتحقيق الذات في هذه الحركة ولكن في أسلوب نظيف ، إن العمل والإيجابية صورة أخلاقية في الثقافة الاسلامية على عكس التبطل والسلبية فانها صورة غير أخلاقية ، لأنها تنافي غاية الوجود الإنساني كما يصورها الإسلام ، وهي الخلافة في الأرض واستخدام

---

١ – سيد قطب : المستقبل لهذا الدين .

٢ – العقاد : الإسلام في القرن العشرين .

ما يسخره الله للإنسان من قواها وطاقاتها في التعمير والبناء [1] .

ولما كانت الثقافة الإسلامية تقوم على العقل ولا تنافيه فإنها بسطت أمام العقل آفاقاً جديدة واسعة ، وفتحت أمامه ألوانا من الاهتمامات ، لقد طاف القرآن بالعقل في ملكوت السموات والأرض ودعاه الى النظر الى الكون في سعته : الى شمسه وقمره ونجومه وأفلاكه «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» والى غيومه وسحبه وأمطاره «ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله» ، والى مائه وينابيعه وزروعه بألوانها ومراحل نموها «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعا مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاماً» والى بحاره بلآلئها وأسماكها وسعتها وحركتها «وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» والى الجبال الموزعة في أرجاء الأرض والى الأنهار والسبل «وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون» [2] .

---

١ – سيد قطب : هذا الدين .

٢ – أنظر محمد المبارك : نظرة الاسلام العامة إلى الكون والوجود .

التحديات التي جابهتها الثقافة الاسلامية

ولقد جابهت الثقافة الاسلامية في القديم والحديث تحديات كثيرة ، ولعل عرضاً سريعاً لبعض أنواع هذه التحديات يعطينا صورة عن حقيقتها وعن طبيعة الأسلوب الذي اتبعه رجال الفكر الاسلامي في مجابهتها مع الابقاء على أصالتها وطابعها المستقل .

فقد تعرض المسلمون مع نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ،وبتأثير من احتكاك المسلمين بشعوب العالم — على أثر الفتوحات الاسلامية وبعد ان استقرت الدولة وهدأت الى حياة الدعة والراحة — الى حملات من الزندقة والالحاد والتشكيك بعقيدة التوحيد الصفة المميزة للفكر الإسلامي ، واخذت هذه الحملة صوراً متعددة وغالباً ما كانت تعتمد على الجدل في أمور لا يستطيع العقل البشري أن يصل فيها الى نتيجة حاسمة ، لقصوره وفقدان الأدوات الفكرية التي تهيء له ذلك ، وكان الهدف : التشكيك ثم الهدم .

وهكذا خاض الناس فيما استنكف عنه الصحابة والمسلمون من قبل ، فتكلموا في الله وصفاته وأفعاله ، وجادلوا في التكليف وحقيقته وأسبابه ونتائجه ، وأدلوا برأيهم في القضاء والقدر والجنة والنار والصراط وغيرها ، ولم يعد الأمر قاصراً على الرد على الخصوم ، وانما نشأ نتيجة لذلك علم مستقل وهو علم الكلام أو

التوحيد كما يسميه آخرون ، ودخل في هذا العلم شؤون كثيرة غير ضرورية ولا مجدية في الدفاع عن الإسلام وعقائده ، وتعددت الفرق العقائدية واستحوذ الجدل والنقاش على رجالها ، فأصبح الجدل نفسه غاية وهدفاً بعد أن كان وسيلة لبيان الحق والدفاع عنه . ومع أن تأسيس علم الكلام في ذاته لم يكن أمراً إدّاً ، إذ نشأت علوم كثيرة مع ظهور الإسلام اقتضتها طبيعته ، إلا ان انحراف اكثر رجال هذا العلم عن الغاية الأساسية الذي انشيء من أجلها جعل الكثيرين من مفكري الإسلام وعلى رأسهم المعنون بالحديث والفقه ، كالأئمة : الشافعي وابي يوسف وابن حنبل والغزالي وابن تيمية ، يحرصون على الامتناع عن الخوض فيما خاض فيه الكلاميون ، ويدعون للعودة الى المنبع الصافي للثقافة الاسلامية والاكتفاء بما في القرآن وحديث رسول الله من عقائد ، والتأسي بموقف الصحابة من هذه الأمور ، ويعجبنا في هذا المقام قول المقريزي «من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط عن طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف به الرب سبحانه نفسه الكريمة في القرآن وعلى لسان نبيه ﷺ بل كلهم فهموا معنى ذلك فسكتوا عن الكلام في الصفات. نعم ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وانما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعزة والعظمة ، وساقوا الكلام سوقاً واحداً ، وهكذا أثبتوا رضي الله عنهم بلا تشبيه ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم الى شيء من هذا ، ورأوا بأجمعهم اجراء الصفات كما وردت ، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل على وحدانية الله تعالى وعلى اثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله تعالى ، ولا عرف أحد منهم الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة».

والحق ان دعوة للعودة بالفكر الإسلامي الى صفائه ونقائه وتميزه كانت ضرورية ، بعد أن انصرف المفكرون عن المجدي من التفكير ، وبعد أن اتبع الكلاميون السبل فضلوا عن الحق ، وبعدوا عن النبع الأصيل والفكر المتميز ،

وكان للأئمة ابن حنبل والغزالي وابن تيمية أثرهم في اعادة الأمور إلى نصابها ، وان اختلف أسلوبهم في ذلك ، فقد تحمل الأول عنت السلطة وجبروتها وقسوتها ، واعتمد الثاني على أساليب الكلاميين العقلية والجدلية نفسها في بيان قصور علم الكلام عن أدائه لغرض واضعيه منه وعجزه عن توضيح الحقائق ، بينما جعل الثالث الاحتجاج بالقرآن الكريم والحديث النبوي أساساً للوصول إلى نفس الهدف .

ومن التحديات التي جابهتها الثقافة الاسلامية ، الغزو الفكري اليوناني ، بعد أن ترجم المسلمون معظم ما خلفه رجال الفلسفة اليونانية ، وخاصة المشهورون منهم ، كافلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم ، فقد تداول المسلمون كتب هؤلاء ، واعجب الكثيرون بها ، وتأثروا بما فيها أبعد تأثير ، وكتبوا في ذلك ، وأصبحت دراسة الفلسفة اليونانية بدعة المثقفين في العصر العباسي ، وبرز عدد من الذين يمثلون هذه الفلسفة ويدعون الى الاستعاضة بها عن الفكر الأصيل ، كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل . ولقد بلغ من قوة تيار هذه الفلسفة الوافدة أن تأثر بها بعض كبار رجال الفكر الإسلامي من الذين كان لهم الفضل في بيان نقائصها وكشف اختلاف مثلها عن مثل الإسلام وقيمه ، واسلوبها عن أسلوب التفكير الإسلامي الصحيح . ومع أن الثقافة الإسلامية منفتحة على العالم ، تستفيد من الحكمة في أي وعاء كانت ، إلا أنها كثقافة أصيلة ، تقيس جميع ما تقتبسه أو تستفيد منه بمقياس مبادئها ومثلها ، فلا تسمح بما يهدم هذه الأسس أو يقضي على شخصيتها . ولا شك أن الثقافة اليونانية تختلف في نظرتها الى الحياة والكون والوجود عن نظرة الثقافة الإسلامية ، فهي ثقافة نظرية بحتة ، لا تهتم بأن تقوم المعرفة على أساس الإيمان بالله والرسالات الإلهية ، ومن يسمون بالإلهيين منهم لا يؤمنون بالله كما يؤمن به المسلمون ربا خالقاً ومدبراً لشؤون العالم متميزاً عنه ، وانما يعتقد معظمهم بالله على انه مثال من المثل وان كان أرقى منها شأنا ، كما يعتقد ان الوجود يفيض عنه كما يفيض الحرارة عن الشمس والنور عن القمر ، فالله ليس خالقاً ولا مدبرا لشؤون الكون — في رأيهم — لأنه حركه ثم تركه ، وهم بالتالي لا يؤمنون بالحساب أو الثواب أو العقاب وإنما يعتقدون بما يشبه تناسخ الأرواح

الذي يوجد مثله في الديانات الشرقية القديمة ، ثم ان نظرة الفلسفة اليونانية الى الأشياء نظرة حسية مادية ، والسعادة في رأي معظمهم لا تتجاوز هذه الحياة .

لذا فقد كان أمراً خطيراً أن تحتل هذه الفلسفة مكان الصدارة في الفكر الاسلامي بل وان تعتبر ممثلة له معبرة عن قضاياه ، ولقد بلغ الاستهتار بكثير ممن يسمونهم بفلاسفة الإسلام ممن تأثروا بهذه الفلسفة أنهم نقلوها كما هي ، وتبنوها على صورتها التي عرفها اليونان ، دون ادخال أي تعديل يجعلها تتناسب مع الفكر الجديد، حتى جاءت مؤلفاتهم نسخاً طبق الأصل عنها ، وكان طبيعياً أن يقف رجال الثقافة الإسلامية الأصيلة أمام هذا الغزو الجديد لاعادة النقاء الى الفكر الاسلامي.

وكان للغزالي وابن تيمية جهاد أفضل في الدفاع عن وجه الثقافة الإسلامية الأصيل . أما الغزالي فقد كتب «تهافت الفلاسفة» رد فيه على معظم نظريات الفلسفة اليونانية ومبادئها وبين تهافتها وضآلة شأنها ومخالفتها للإسلام وثقافته الصحيحة ، وقد اعتبر هذا الكتاب قاصمة الظهر للفلسفة اليونانية في الشرق الإسلامي ، إذ لم تقم لها بعده قائمة ، ولا عجب في ذلك فقد سبق أن اطلع الغزالي على هذه الفلسفة من مصادرها الرئيسية وألف فيها كتاباً سماه «مقاصد الفلاسفة» لا نجد له مثيلاً في عرض الفلسفة اليونانية بشتى مذاهبها حتى بين فلاسفة اليونان أنفسهم ، وأما ابن تيمية فقد كانت له جولات مظفرة مع الفلسفة اليونانية ورجالها في رسائله ومقالاته ودروسه ، ولكن كل ما كتبه لا يعدل كتابه «الرد على المنطقيين» أو «نقض المنطق» فكما ان «تهافت الفلاسفة» كان قاصماً للفلسفة اليونانية فقد كان هذا الكتاب قاصماً لأسلوب الفكر اليوناني ومبادىء منطقه في التعليم والتدليل والنقاش. وهكذا يعود الفكر الاسلامي الى اصالته وتميزه .

لكن التحديات ما تزال مستمرة ، والصراع ما يزال قائما ، إلا أن ظروف الصراع تتجدد ، والاساليب التي تسلكها الثقافة الإسلامية في مجابهة خصومها تتجدد ايضاً ، وسنرى أن التحدي الذي تجابهه هذه الثقافة الآن هو تحدي الحضارة الغربية وما انبثق عنها من ثقافات واتجاهات فكرية وعقائدية ، وسنجد أن الثقافة الاسلامية مضطرة الى أن تغير في أسلوبها وفي القضايا التي تعالجها كيما

توفق في الحفاظ على نفسها وتأثيرها الدائم في العالم ، فلا يصح أبداً الوقوف عند موضوع لم يعد يشغل أذهان الناس أو يلح على حياتهم ، كما لا يصح الوقوف عند أسلوب لم يعد مستساغاً أو محبوباً ، ولعل من المناسب ان نثبت تأكيداً لهذا المعنى قولين لعالمين من كبار رجال الفكر الاسلامي في الهند ، هما الشيخ محمد علي المويكري والاستاذ شبلي النعماني .

يقول الاستاذ المويكري في بيان التحديات التي تجدّ على الثقافة الإسلامية : «ان الاعتراضات التي شغلت العقول وحلقات الدرس قديماً قد فقدت أهميتها وقيمتها ، وانقرضت الفرق التي كانت تثيرها وتتشبث بها وأصبح العكوف على دراستها وتفهمها اضاعة للوقت وجهاداً في غير عدو ، وقد نشأ عالم جديد وتجددت حاجاته ، وقد أثار أعداء الإسلام وخصومه أسئلة جديدة في هذا العصر لم تكن تخطر على بال وذلك في ضوء الفلسفة الجديدة ، ولا يمكن اشباع الرد عليها واقناع الخصم بالاعتماد على الفلسفة القديمة فقط وان زعم زاعم ، والسبب في ذلك ان الانسان لا يستطيع أن يحل الشبهة ويفحم الخصم إلا اذا عرف ما يؤدي اليه الاعتراض وعرف الدوافع».

أما الاستاذ النعماني فإنه يشير الى تغير أساليب الفكر الإسلامي والثقافات القديمة التي يمكن الاستغناء عنها بانتهاء الضرورة إليها بقوله : «ان هذه العلوم اليونانية ليست علومنا الدينية ولا يتوقف عليا فهم ديننا ومعرفته ، إن الإمام الغزالي في عصره قد ضم هذه المواد الدراسية الى مناهج التعليم لكي يطلع العلماء على الأساليب الجدلية اليونانية التي نشطت في نشرها الفرق الباطنية في ذلك العصر ويقاوم بذلك حركة الالحاد المتفشي في ذلك العصر ، ولكن لا وجود الآن لأولئك الملاحدة ولا لتلك العلوم اليونانية ، ولا يعتقد سبقها وصحتها المتنورون ولا من يدعي الفطنة ، لذلك فقدت تأثيرها ولا خطر على الإسلام اليوم منها ، وقد احتلت مكانها علوم حديثة وقضايا جديدة ودراسات وأبحاث جديدة وقد أصبح من الضروري أن يطلع علماؤنا على الابحاث الجديدة والعلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولاً للمعضلات الحديثة وليردوا على الشبهات رداً علمياً مؤسساً على الدراسة والتحقيق.

تحديات الثقافة الغربية وحضارتها

نتنقل الآن الى أعظم تحد عرفته الثقافة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية على وجه العموم ، وهو الغزو الغربي ، غزو الحضارة الغربية بشتى مؤسساتها الذي ازداد خطره على المسلمين منذ القرن التاسع عشر الميلادي وما يزال مستمراً حتى الآن ، وقد اتخذ هذا الغزو شكلين : الغزو المسلح الذي كان من نتيجته الاستعمار لمعظم بقاع الاسلام ، والغزو الفكري والثقافي الذي رافق الحرب المعلنة على المجتمعات الإسلامية .

وقد كان الخطر على الثقافة الإسلامية من الغزو الفكري كامناً أولاً : في طبيعة الثقافة الغربية واختلافها في معظم مبادئها عن الثقافة الاسلامية ، فقد كانت السلطات الاستعمارية تشرف على بث هذه الثقافة عن طريق المدارس وشتى وسائل الدعاية من كتب ومجلات واذاعات ، وفتح الأبواب أمام الذين تشبعوا بهذه الثقافة من المسلمين واغلاقها أمام الذين أرادوا المحافظة على شيء من تقاليدهم وشخصيتهم. ولقد كان في نشر الثقافة الغربية حرب وأي حرب على الفكر الاسلامي ، ذلك لأن الحضارة الغربية الحديثة كانت أثراً من آثار النزاع المسلح بين رجال الدين والعلم ، لأن من المعروف أن الحكم في أوروبا قبل النهضة كان حكماً ثيوقراطياً تتحكم فيه طبقة خلعت على نفسها اسم الدين وسامت الناس صنوف الاهانة والعذاب ، ووقفت أمام الحرية والكرامة والعلم وسائر المقومات الانسانية ،

واستطاعت أن تحجب النور عن العالم الغربي قرونا طويلة كان المسلمون فيها يفتحون آفاقاً واسعة في المعارف والفنون . وقد شعر المتحررون في أوروبا انه لا خلاص لهم إلا بالقضاء على هذه الطبقة والحكم الرهيب الذي تتبناه ، وهكذا نشأت الحضارة الغربية وكلها ردود فعل ضد رجال الكنيسة وبالتالي الدين ، فقد تبنت هذه الحضارة فصل الدين عن الدولة في الحياة الاجتماعية والسياسية ، كما تغلغلت روح الالحاد والتحلل عن قيود الدين في أسلوب المفكرين وفي علومها وآدابها وفلسفتها . ان فلسفة الحياة في الثقافة الغربية فلسفة مادية بحتة ، ويستطيع الباحث أن يدرك ذلك من استعراض مشاهير رجالها كهيجل وداروين وماركس وهكسلي وغيرهم ، ونشأت بناء على ذلك فلسفة خلقية ازدهر في ظلها التحلل من القيم والانحلال الديني وجحود الآخرة وسيادة مبادىء النفعية واللذة والتعصب للعنصرية والقومية والجنس ، وأصبح كل شيء في هذه الحضارة مؤقتاً نسبياً ، وانعدمت الموازين المطلقة التي توجد بين بني الانسان .

وقد عبّر عن هذه الثقافة ومؤسساتها المفكر المسلم محمد أسد «ليوبولدفايس سابقاً» خير تعبير فقال : «وقد كان البلاء الأكبر في حضارة اليونان والرومان قديما وفي حضارة الغرب الحديثة هو في سيطرة المادية في غاياتها وأهدافها ومن هنا نشأ الفساد والحروب والخصومات ، ان الرجل العادي في أوروبا ديموقراطياً كان أم فاشياً ، ورأسمالياً أم اشتراكياً ، عاملاً أم رجلاً فكرياً ، انما يعرف ديناً واحداً هو عبادة الرقي المادي والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة إلا أن يجعلها الإنسان حرة طليقة من قيود الطبيعة ، أما كنائس هذا الدين فهي المصانع الضخمة ودور السينما ومختبرات الكيمياء ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها فهم رؤساء المصارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزون ، ونتيجة هذا النهم للقوة والشره للذة ، النتيجة اللازمة ، ظهور طوائف متنافرة مدججة بالسلاح والاستعدادات الحربية مستعدة لإبادة بعضها إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها ، أما في جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز من الإنسان يعتقد الفضيلة في العقائد العملية ، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح

المادي لا غير ، وليس في هذه الحضارة ولا في نظامها الفكري موقع لله في الحقيقة ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة اليه».

ويكمن الخطر ثانياً في تبني الحضارة الغربية للمؤسسات التعليمية والثقافية التي تبث ثقافتها وتعمل في الوقت نفسه على اظهار الإسلام بما ليس هو على الحقيقة وطمس معالمه الصحيحة وتشويه مبادئه المثالية ، ويقوم بهذه المهمة عادة من يسمون بالمستشرقين . ونحب أن نشير بهذه المناسبة الى ظاهرة هامة وهي انك «لا تجد موقف الاوروبي من الاسلام موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات غير الإسلامية ، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقلياً فقط ولكنه يصطبغ بصبغة عاطفية قوية . قد لا تقبل أوروبا تعاليم الفاسفة البوذية أو الهندوكية ولكنها تحتفظ دائماً فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه الى الإسلام يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي في التسرب ، حتى أن أبرز المستشرقين الأوروبيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام ، ويظهر هذا في معظم بحوثهم كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على انه موضوع دراسة في البحث العلمي بل انه متهم يقف أمام قضاته ، ان بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يطلب اثبات الجريمة وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع ، فهو مع قناعته شخصياً بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور اعتبار الاسباب المخففة .

وقد كان هدف المستشرقين من دراساتهم إضعاف مُثُل الاسلام وقيمه العليا من جانب ، واثبات تفوق المثل الغربية وعظمتها من جانب آخر ، واظهار أي دعوة الى التمسك بالاسلام بمظهر الرجعية والتأخر ، بينما عملوا على احياء حضارات ما قبل الاسلام : الحضارة الفرعونية ولغتها في مصر ، والحضارة الآشورية ولغتها في العراق ، والبربرية في افريقيا الشمالية ، والفينيقية في سواحل فلسطين وسوريا ولبنان .

ومن الوسائل التي اتبعها المستشرقون ومن تأثر بهم من المسلمين والعرب في هذا الخصوص ومن الدعوات التي مارسوا النشاط لها وترويجها : [1]

١ ــ القول ببشرية القرآن الكريم وانه ليس أكثر من تعبير عن انطباع البيئة العربية في نفس الرسول ، ونجد هذا حتى عند المعتدلين منهم كجب في كتابه المحمدية ، وقد خلف المستشرقين من المواطنين بكل أسف تلاميذ ؛ نجباء لهذا الاتجاه . فالذي يقرأ كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين يرى أن القرآن رد على الوثنية العربية والمسيحية العربية واليهودية العربية ، فالقرآن فكر يتأثر ببيئة عربية معينة ، وحين نقارن ما كتبه طه حسين مع كتاب جب لا نجد أي خلاف لا في الفكرة ولا في الأسلوب ، كما انك ترى نفس الأفكار ينادي بها رجال بعض الأحزاب العربية الذين أنكروا صفة الوحي على القرآن وادعوا انه نتيجة عبقرية محمد .

٢ ــ إن القرآن تعبير عن الحياة التي وجد فيها الرسول وهو لا يصلح لزمن آخر ، وقد تولّى كبر هذه الدعوة في بلادنا أيضاً الدكتور طه حسين الذي اعتبر القرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي إذ يقول «أرأيت أن التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه الشعر الجاهلي ، أرأيت أن هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا أن نعرف من أمر الجاهليين».

٣ ــ إن لغة القرآن الفصحى لا تساير حاجات العصر فيجب أن تعم اللغة العامية حتى تصبح لغة الصحف والمؤلفات ، وقد ساعد المستشرقين في هذه الناحية حكومات الاحتلال وشجعت عليه ، ثم قامت اثر ذلك الدعوة الى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية حتى قدم اقتراح بذلك الى المجمع العلمي المصري أحد مشاهير مصر وهو عبد العزيز فهمي باشا سنة ١٩٤٣ .

٤ ــ إن المجتمع الاسلامي في صلته بالاسلام لم يكن على نحو قوي إلا في

---

١ ــ انظر كتابي : الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر للدكتور محمد محمد حسين ، والفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي .

فترة قصيرة هي الفترة الاولى ، أي عهد بدائية المجتمع الاسلامي ، وبدائية المجتمع هي التي أوجدت نوعاً من التلازم بين الحياة فيه وتعاليم الاسلام ، وكلما تطور المجتمع زادت الفجوة لأن الاسلام لا يوافق التطور .

٥ ــ إن التخلف عن تنفيذ تعاليم الاسلام تمليه الضرورة الاجتماعية تحت ضغط ظروف الحياة المتجددة التي لا يستطيع الاسلام أن يكيفها في تعاليمه ، وتطبيق الاسلام اذن يعني العزلة والتخلف .

٦ ــ ان التطور وهو قانون الحياة الذي لا مفر من الخضوع له يجب أن يستخدمه المسلمون في اسلامهم ، وذلك بالسير وفق المثل الغربية والتفاعل معها ، وان تكون الحياة بالتجربة والطريقة العلمية ، وإذن فإن من الواجب اصلاح الديانة الاسلامية أو اصلاح القانون الاسلامي على الأقل حتى يتمشى مع الزمن ، وهي دعوة ظاهرها الحق وباطنها الضلال .

٧ ــ ومن أعمال المستشرقين البحث عما يظنونه مواضع ضعف وإبرازها لأجل غاية دينية أو سياسية ، وليس ذلك فحسب ، ولكنهم ينظرون اليها بالمرآة المكبرة ويعرضونها كذلك للقراء ، حتى يروا الذرة جبلاً والنقطة بحراً ، ومن أمثلة ذلك الاحتكاك دائماً بمواضيع معينة كاباحة الطلاق وتعدد الزوجات وزواج النبي ﷺ بعدة نساء وتضخيم النقاش العقائدي الكلامي .

٨ ــ ومما فعله المستشرقون ويفعلونه حتى الآن تجريد الفكر الاسلامي من كل شيء أصيل ، فمضمون هذا الفكر في زعمهم إما يوناني أو فارسي أو هندي أو غير ذلك .

وقد استطاع المستشرقون أن يحققوا كثيراً من الأهداف التي خططوا لهـا وأثاروا في العالم الاسلامي شبهات حول الاسلام ونبي الاسلام والمصادر الاسلامية، وأحدثوا في نفوس المسلمين يأساً من مستقبل الاسلام ومقتاً على حاضره وسوء ظن بماضيـه .

ونحن لا ندعي ان جميع المستشرقين ولغوا فيما ولغ فيه غيرهم ، لأننا نعترف

بالفضل لبعضهم ممن كان منزهاً عن الغرض فساعد على نشر كنوز التراث الإسلامي ، ولكننا لا نستطيع إلا أن نجهر بأن معظم المستشرقين يهدفون من اهتمامهم بالإسلام إلى أحد أمرين : فهم إما منتسبون لمؤسسات دينية يعملون لها منسجمين مع مخططات التبشير ، وإما انهم يعملون لمؤسسات سياسية فهم يحققون غرضاً استعمارياً أو نشاطاً لتدعيم نفوذ احدى الدول ، وقد كان هؤلاء رواد الدول الغربية الى الشرق للتعرف على أوضاعه ومشاكله كيما تتحقق لهذه الدول طاقات أكبر على التسلل والتسلط .

ومما ساعد المستشرقين ومن يلوذ بهم عن الوصول الى أهدافهم :

١ ــ وجود عدد من المسلمين الذين تأثروا خطاهم فكانوا أقدر منهم على التعكير على الثقافة الإسلامية ، لأن صاحب البيت أدرى بالذي فيه كما يقولون .

٢ ــ تخلف العلوم الاسلامية ، ووقوف الفكر الإسلامي ، وإصابة المنهج الدراسي بجمود لم يسمح له ان يتجاوز عن خطه المرسوم قديماً ، وتوقف توسيع نطاق الفقه الاسلامي .

٣ ــ الضعف السياسي الذي اصاب المسلمين وفقدان الثقة بأنفسهم وبما عندهم .

٤ ــ ما يتعمده خصوم الاسلام من إلباس الاسلام كل خطأ يقع فيه أبناؤه فهم ينسبونه الى الاسلام مع ان سببه ترك الاسلام والتخلي عنه .

٥ ــ هذا بالإضافة إلى ناحية هامة وهي ان المجتمعات الإسلامية أخذت بنظم التعليم الغربي كما هي ، مع أن روح التعليم والتربية ظل لعقائد واضعيه ونفسيتهم وغاياتهم من العلم ودراسة الكون ووجهة نظرهم إلى الحياة ومظهر لأخلاقهم ، وذلك ما يمنح نظام التعليم شخصية مستقلة وروحاً وضميراً ، فإذا كانت للأمة عقيدة وأخذت بنظام تعليم آخر فلا بد أن يحدث نزاع عقلي وعاطفي ، وينتهي الأمر إلى قبول القيم الجديدة شيئاً فشيئاً والتخلي عن القيم السابقة ، ونذكر بهذه المناسبة أن الغزالي وهو الشخصية الفذة في دقة الفهم وسعة المعرفة عندما استغرق

في دراسة الفلسفة اليونانية تأثر بها مع أنه ألف في نقدها كما نعلم ، حتى قال عنه أبو بكر بن العربي «شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع».

ولا شك أن الثقافة الإسلامية والمدنية الغربية وهما يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماماً لا يمكن أن يتفقا ، فإذا كان ذلك كذلك فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوروبية وعلى مقتضياتها ، خالية من شوائب النفوذ المعادي للإسلام ، ليس ثمة ما يبرر توقعنا لذلك وإننا — كما يقول الأستاذ محمد أسد — إذا استثنينا بعض الأحوال النادرة التي يتاح فيها لعقل نير للغاية أن يتغلب على مادة التعليم ، فإن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتماً إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم على أنهم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الإسلام ، وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين من يسمّون أنفسهم بالمتنورين الذين نشئوا على أسس غربيّة .

مَوقف الثقافة الإسلاميّة
من تحدّيات الثقافة الغربيّة

إذن فإن غزو الثقافة الغربية سواء الغزو الذاتي أو غزو رجالها ودعاتها ما يزال قائماً ، وهو الصورة الحديثة في سلسلة الهجمات التي شنها خصوم الفكر الإسلامي عليه ، فما هو موقف المفكرين في البلاد الإسلامية من هذا الغزو ؟

نستطيع أن نميز عدة اتجاهات [1] :

١ — أولها يتخذ موقفاً سلبياً أمام الحضارة الغربية وكل ما انبثق عنها من مؤسسات حضارية وثقافية وهو يدعو إلى عدم الأخذ بشيء من أسباب هذه الحضارة .

٢ — وثانيها يدعو إلى التغريب والأخذ بكل أسباب الحضارة خيرها وشرها ، سواء ما يتعلّق بالعلم والصناعة أو ما يتعلّق بالثقافة ، وأسلوب الحياة الروحية والعقلية واللاهوية .

٣ — ثم اتجاه ثالث يحاول أن يوفق بين الحضارتين ويدعو إلى تقريب مبادىء الإسلام من مثل الحضارة الغربية مع الميل إلى تبني الثقافة الغربية ، فهو يعمل على

---

١ — أنظر المرجعين السابقين ، وكتاب الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية للأستاذ أبي الحسن الندوي .

تطوير الإسلام والبحث عن أدلة ذلك من أقوال مفكري الإسلام ما أمكن .

٤ ــ وأخيراً الاتجاه الذي يتمثل في الدعوة إلى احتفاظ المسلمين بإسلامهم حسب القرآن والسنّة ، والوقوف عند حدود الفكر الإسلامي في منابعه الأصيلة ، وإعادة تماسك الجماعة الإسلامية مع الإفادة من خير ما أنجزته المدنية الغربية والعلم الغربي ، مع عدم الأخذ من الثقافة نفسها إلاّ ما كان منها لا يتعارض مع شخصية الأمة الإسلامية وثقافتها .

أما الاتجاه الأول أي الموقف السلبي ، فإنّنا لن نقف عنده كثيراً لأنه سوء تفسير للدين الذي يحث على استعمال العقل والتفكير في الكون واقتباس الصالح النافع وإعداد للقوة . ثم إن هذا الموقف يستحيل عملياً لأن طبيعة الأشياء تأباه ، إن مثل هؤلاء في إغلاق الأبواب والنوافذ على أنفسهم مثل النعامة التي تظن أنها تحمي نفسها إذا أخفت رأسها في التراب ، وأصحاب هذا الاتجاه إما أن يقبلوا باقتباس المفيد وإجراء شيء من التطور والتجديد وإلاّ فإن تيار التاريخ سيخلفهم وراءه وسيلتفون حولهم يوماً فلا يجدون قريباً ولا نصيراً .

أما الاتجاه الثاني فهو موقف المستسلم للحضارة الغربية المقلد لها ، المؤمن بكل قيمها ومبادئها ، الداعي لها بحذافيرها ، بعقائدها الأساسية ومناهجها الفكرية وفلسفتها المادية ونظمها الاقتصادية والسياسية .

وقد وجد لهذا الاتجاه أنصار ومؤيدون في كافة بقاع الإسلام ...

وكانت تركيا من بين دول الإسلام أول دولة تتخلى سلطاتها في فترة ما عن ماضيها الإسلامي بكل ما فيه من ثقافة وفكر وتقاليد وأنماط حياة، ومع أن الأتراك كان لهم دولة حرة واسعة الأرجاء ، إلاّ أن الكثيرين من مثقفيهم ، كانوا قد فقدوا إلى حد بعيد ثقتهم بأنفسهم ، ولم تعد لديهم قوة الإيمان واليقين بما عندهم من مقومات الحياة ، فانهاروا تحت تأثير ضربات الثقافة الغربية الفائضة بالروح الجديدة والطاقات العظيمة والثورة الصناعية والعلمية والفكرية ، ولم تستطع فئة العلماء القدامى التي لا تدرك شيئاً عن المقتضيات الجديدة والتطورات الحديثة أن تقف

أمام فئة من الجيل الجديد الذي تلقى ثقافته في عواصم أوروبا أو في بعض الكليات العصرية في تركيا فنشئوا على الاستهانة بالـــدين واليأس من مستقبله وكراهة رجاله مع تقديس الحضارة الغربية بكل ما فيها ، وكان ضياء كوك الب هو الممثل الفكري لهذا الاتجاه كما كانت المؤسسات الرسمية التي تولت السلطة بعد الحرب العالمية الأولى اليد المنفذة له . وقد كانت هذه المؤسسات مؤمنة كلّ الإيمان بالحضارة الغربية ، وكان هدفها واضحاً ومحدداً وهو إقامة دولة على طراز الدول الأوروبية الحديثة ، وكانت تعتقد أن الخلافة العثمانية قامت على أساس الإسلام ، وأن الإسلام بطبيعته عربي وتصرفاته عربية ، وأنه ينظم الحياة من ولادة الإنسان إلى وفاته ويصوغها صياغة خاصة تخنق الطموح في النفس ، وما دام الإسلام منبع الثقافة ودين الدولة فإن الدولة ستكون في خطر ، ولذلك فقد وجّهت كفاحها أولاً وأخيراً إلى الدين الإسلامي وكل ما يتفرّع عنه ، ولم تكتف هذه المؤسسات بفصل الدين عن الدولة وإقامة المجتمع التركي على العلمانية ، ولكنها أرادت أن تجتث ما يذكّر بالإسلام أو يوحي به ، فتدخلت في لباس الناس ، وأجبرتهم على لبس القبعة والملابس الإفرنجية ، كما أجبرت المرأة على الخروج سافرة ، ثم عمدت إلى الحروف العربية فأبدلتها باللاتينية وعادت إلى التاريخ التركي سلخاً وتشويهاً حتى تقطع كل صلة له بالإسلام وتقيمه على أساس القومية الطورانية ، ولم تحقق هذه المؤسسات ما تريد بالرضى والاختيار ولكنها اتبعت أقصى وسائل العنف والارهاب ، لأن الشعب التركي مؤمن بإسلامه وتاريخه الإسلامي وثقافته وتقاليده الإسلامية ، يقول عرفان أورغا وهو أحد المؤرخين المعجبين بأتاتورك : «وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا حتى أصدرت الحكومة أمرها إلى بارجة تركية بالبقاء بالبحر الأسود ، وأقيمت المحاكم في كل ناحية وصوب وفي أمكنة مختلفة من البلاد ... وأعدم علماء الدين الذين نفخوا في قلوب الناس روح المقاومة وحماس الدين أو اضطروا إلى أن يختفوا عن الأنظار ، ولم يستعمل رفقاً ومسامحة في مناسبة ، وقرّر مصطفى كمال تنفيذ المشروع وإتمامه ، ولم يكن يحفل بالوسائل والطرق التي يستخدمها في هذا الشأن فيلقي

القبض على الناس الذين كانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام واستهدف في ذلك الأبرياء والمجرمون على حد سواء». [1]

وهكذا هيء لهذا الاتجاه أن يسود الحكم في تركيا مدة من الزمن فهل استفادت تركيا من كل ما حصل ، لقد فقدت ماضيها القريب وانفصلت عن التراث العلمي الغني الذي ساهمت في تكوينه الأجيال الكثيرة والعقول الكبيرة ، كما فقدت زعامة العالم الإسلامي ، وأحدثت فجوة كبيرة بين رجال الحكم وبين الشعب المسلم القوي ، فماذا كسبت تركيا في مقابل ذلك كلّه ، لقد قلّدت تركيا الحضارة الغربية وبعض مظاهرها السطحية ، وأخذت ببعض الاصلاحات التي لا تقدم ولا تؤخر في حياة الشعوب ، وأصبح دورها في اقتباس الحضارة الغربية دوراً تقليدياً يخلو من كلّ أصالة وابتكار ، ولا شك أن هذه المكاسب لا تعدل شيئاً في مقابل ما فقدته تركيا وتخلّت عنه ، ولقد قامت في تركيا أخيراً دعوات عاقلة تدعو إلى العودة إلى التمسك بالإسلام وثقافته وتقاليده ، وإلى إعادة الارتباط الوثيق مع البلاد الإسلامية الأخرى التي تحتل تركيا بينها مكاناً مرموقاً، فقد تحملت الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه أكثر من خمسة قرون [2] .

أما في الهند فقد تحمس لاتجاه التغريب أحمد خان والمدرسة الفكرية التي أسسها . دعا أحمد خان دعوة ضياء كوك الب وأتاتورك ، أي إلى تقليد الحضارة الغربية وأسسها المادية واقتباس العلوم العصرية بحذافيرها وعلى علاّتها ، وتفسير الإسلام والقرآن تفسيراً مطابقاً لما وصلت إليه المدنية الحديثة في آخر القرن التاسع عشر المسيحي ، ويرى سيد أحمد خان أن التقليد والظهور بمظهر سيد البلاد ومجاراته في الحياة والعادات تزيل الهيبة من قلوب المسلمين منه ، وتعالج مركب النقص فيهم ، وترفع مكانتهم في عيون الولاة ورجال الحكومة ، وتضعهم في مكان الشركاء في الحياة ، الاقران في الاجتماع . وأصدر أحمد خان تفسيراً سماه تبيان

---

١ – أبو الحسن الندوي ، المرجع السابق .

٢ – المرجع السابق .

الكلام فسر فيه القرآن كما يخلو له وعلى صورة تطابق أهواء الغربيين وآراءهم ، وكان يقول بآراء الطبيعيين في إنكار كل ما لا يثبته الحس والتجربة وعلوم الطبيعة من الحقائق الغيبية وأمور ما بعد الطبيعة ، وقد أسس أحمد خان بمعونة انجلترا جامعة عليكرة لتكون مركز الدعوة للثقافة الغربية بكلّ أشكالها ، وكتب لهذه الجامعة أن تصبح بعد ذلك من أهم المراكز الإسلامية في الهند .

أما في مصر فقد كان الاتجاه إلى التغريب قوياً ومتحمساً ، والحق ان مصر كانت بيئة صالحة لهذه الدعوة ولجميع دعوات الاستشراق «ومن النادر أن يقرأ الإنسان لعالم مستشرق في الغرب بحثاً ولا يعرف له نظرية إلا ويجد أديباً أو مؤلفاً في مصر يتبنى هذه النظرية بكل إخلاص ويشرحها ويدعو إليها بكل لباقة ، مثل : بشرية القرآن، فصل الدين عن السياسة، وان الإسلام دين لا دولة والدولة إلى العلمانية، والشك في مصادر العربية الأولى، والشك في قيمة الحديث العلمية، وإنكار مكانة وحجية السنة في الإسلام ، والدعوة إلى ما يسمى بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل وإلى السفور ، وكون الفقه الإسلامي مقتبساً من القانون الروماني ، والدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام ، وتمجيد العصر الفرعوني ، والدعوة إلى العامية والتأليف فيها ، واقتباس الحروف اللاتينية ، والتقنين المدني العربي على أساس القانون المدني الغربي ، والدعوة إلى القومية والاشتراكية والشيوعية إلى غير ذلك» [1] .

ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل الحديث عن رجال هذا الاتجاه وآرائهم ولكننا سنكتفي باستعراض أقوال أحد زعمائه وهو الدكتور طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» [2]

إن موضوع هذا الكتاب يدور حول تأكيد ما يعتقد مؤلفه من أن صلة

---

١ – الدكتور محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر .

٢ – صدر للدكتور طه حسين مؤخراً مقالات وكتب يستنتج البعض منها أنه قد عدل عن بعض آرائه حول هذا الموضوع .

المصريين بأوروبا أكثر من صلتهم بالشرق ، وأن الثقافة المصرية جزء من الثقافة الغربية الأوروبية ، وأن فترة الحكم الإسلامي كلّه لم تغير من الأمر شيئاً ، فالثقافة في مصر غربية منذ القدم وستبقى كذلك مهما اختلفت عليها العصور ، فالعقل المصري كما يقول الدكتور طه «منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنّه يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط».

ومن السخف الذي ليس بعده سخف على حد تعبير الدكتور طه «اعتبار مصر جزءاً من الشرق واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين».

وكذلك فإن حياة المصريين المادية في رأيه حياة أوروبية «إن حياتنا المادية أوروبية خالصة في الطبقات الراقية ، وهي في الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً من الحياة الأوروبية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوظهم من الثروة وسعة اليد ، ومعنى هذا ان المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوروبي في حياته المادية».

بل إن حياة المصريين المعنوية في نظره أوروبية أيضاً «وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوروبية خالصة ، فنظام الحكم عندنا أوروبي خالص نقلناه عن الأوروبيين نقلاً من غير تحرج ولا تردد ، والتعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صرحه ووضعنا برامجه ؟ على النحو الأوروبي الخالص ما في ذلك شك ولا نزاع ، ونحن نكوّن أبناءنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوروبياً لا تشوبه شائبة».

وكلّ هذا في رأي المؤلف « يدلّ على أننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم ، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى وحقيقة وشكلاً»، وإذن يتعين علينا كما يقول الدكتور طه «أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحسن منها وما يعاب» كما يتعين

علينا «ان نشعر الأوروبي بأننا نرى الأشياء كما يراها ونقوّم الأشياء كما يقوّمها ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها»، وكل ذلك في نظر الدكتور المؤلف لأن «مصر ذات عقلية أوروبية ولم تتغير بالفرس أو الرومان أو العرب أو الإسلام»، ونهضة مصر في نظره امتداد لمصر الفرعونية «وأنا من أجل ذلك — يقول الدكتور طه — مؤمن بأن مصر الجديدة لن تبتكر ابتكاراً ولن تخترع اختراعاً ولن تقوم إلاّ على مصر القديمة الخالدة ، ومن أجل هذا لا أحب أن نفكر في مستقبل الثقافة في مصر إلاّ على ضوء ماضيها البعيد — الفرعوني — وحاضرها القريب».

ونختم هذه الأقوال بزبدة الكلام وغاية ما يريد المؤلف أن يقذفه في عقول المصريين : «فأما الآن وقد عرفنا تاريخنا وأحسسنا أنفسنا واستشعرنا القوّة والكرامة واستيقنّا أن ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيين».

وهكذا فإن العقلية المصرية غربية ، وتقاليد المصريين أوروبية ، ومصر ترتبط بأوروبا لا بالعرب ولا بالإسلام ، وثقافتها لا أثر فيها للثقافة الإسلامية لأنها ثقافة يونانية أوروبية ، ولأن مُثل المصريين العليا مُثل أوروبية ، وحياتهم المادية والمعنوية أوروبية خالصة ، وهو يريد لهم أن يفنوا في أوروبا ويصبحوا جزءاً منها لفظاً ومعناً وحقيقة وشكلاً ، ولا نظن بعد هذا الكلام من داع لأن يضيف دعاة التغريب شيئاً .

أما الاتجاه الثالث وهو اتجاه تطوير الإسلام والتوفيق بينه وبين الثقافة الغربية ، فإنه يرى أن صالح الثقافة والمجتمعات الإسلامية في هذا التطوير ، كيفما يوافق الإسلام الأمر الواقع في الحياة العصرية . وقد بدأ هذا الاتجاه بالشعور بالحاجة إلى مواجهة القضايا الجديدة باستنباط أحكام شرعية توافقها ثم انتهى إلى دعوة هامة إلى مهاجمة التقليد والمطالبة بالنظر في التشريع الإسلامي كلّه دون قيد ، وهكذا انفتح الباب على مصراعيه للقادرين وغير القادرين ولأصحاب الورع ولأصحاب الأهواء ، وظهرت الآراء التي تجعل الإسلام داخلاً في هذا المذهب أو ذاك من

المذاهب السياسية والاجتماعية والتي ابتدعتها الحضارة الغربية الحديثة ، وبذلك تحولت دعوة التطوير والاجتهاد في آخر الأمر إلى تطوير الشريعة الإسلامية والتخلي عن كثير من أسس الثقافة الإسلامية بحيث تطابق الحضارة الغربية أو تقترب منها إلى أقصى ما تسمح به النصوص والمبادىء من تأويل على أقل تقدير[1] .

إن خطر هذا الاتجاه على الإسلام والمجتمع الإسلامي والثقافة الإسلامية في رأي الدكتور محمد محمد حسين يأتي من وجهتين : «فهو إفساد للإسلام يشوش قيمه ومفاهيمه الأصيلة بإدخال الزيف على الصحيح وإثبات الغريب الدخيل وتأكيده ، فبعد أن كان الناس يشاركون في تصاريف الحياة وهم يعرفون أن هذا الذي غلبوا على أمرهم فيه ، يصبح الناس وهم يعتقدون أنما يفعلونه هو الإسلام ، فإذا جاء بعد ذلك من يريد أن يردهم إلى الإسلام الصحيح أنكروا عليه ما يقول واتهموه بالجمود والتمسك بظاهر النصوص دون روحها».

أما الوجه الآخر لضرر التطوير وهو الذي يعني أعداء الإسلام وما ينبثق عنه من ثقافة وحضارة فهو أن هذا التطوير سينتهي بالمسلمين إلى الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، لأن كل جماعة منهم سوف تذهب في التطوير مذهباً يخالف غيرها من الجماعات ، ومع توالي الأيام نجد ثقافة اسلامية تركية وهندية وإيرانية وعربية ...

ومن الغريب أن يُستدرج الشيخ محمد عبده على فضله وجلالة ما قدمه للثقافة الإسلامية لمناصرة هذا الاتجاه والداعين إليه . ونلاحظ بهذه المناسبة أن حياة الشيخ محمد عبده تنقسم إلى مرحلتين : مرحلة الالتصاق الكامل بأستاذه جمال الدين الأفغاني والمناداة بمعظم آرائه وأفكاره ، ومرحلة تبدأ بعد وفاة الأفغاني حيث انفرد فيها الشيخ بموقف خاص ، فقد تحول عن طريق الإصلاح السياسي الذي كان يعمل له أستاذه إلى الوقوف عند الإصلاح الاجتماعي والثقافي ، وبناء على هذا الخط الجديد فقد اعتزل الإسهام في قيادة الجانب الوطني إلى أسلوبه الجديد الذي يعتمد على توضح الإسلام والدفاع عن الثقافة الإسلامية والتأكيد على أنه

---

١ – الدكتور محمد محمد حسين : الإسلام و الحضارة الغربية .

دين التطور والتجديد وأنه لا يتعارض مع المدنية الحديثة . ومن هذا الأساس انطلق الشيخ إلى تبني مهاجمة التقليد ، والدعوة إلى الاجتهاد وتطوير الإسلام ، وإعادة النظر في وضع المرأة من المجتمع : الحجاب ، الحد من تعدّد الزوجات ، الحد من حرية الطلاق ، والمناداة بالوطنية والقومية ، والعناية بالتاريخ السابق على الإسلام ، والعمل على الأخذ بالنظام السياسي الغربي .

وكان من الداعين إلى اتجاه التطوير قاسم أمين الذي تبنى العمل على تطوير وضع المرأة والعلاقات الاجتماعية عموماً ، وعلي عبد الرزاق وسعد زغلول اللذان تبنيا الدعوة إلى الوطنية والقومية والعناية بالتاريخ الفرعوني والأخذ بالنظام السياسي الغربي على أساس أن الإسلام دين لا حكم .

وقد استغل موقف محمد عبده هذا أسوأ استغلال من أصحاب هذا الاتجاه ومن وراءهم من الأوروبيين ، فقد شبّه اللورد كرومر محمد عبده بالسيد أحمد خان في الهند ، وبيّن أن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب والمسلمين وأنه هو وتلاميذه خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع لأنهم الخلفاء الطبيعيون للمصلح الأوروبي .

وقد يستغرب القارىء هذا الذي نقوله عن أمثال محمد عبده وسعد زغلول وطه حسين وغيرهم لأنه مخالف كل المخالفة للصورة التي قرّت في أذهاننا عنهم ، والحق أننا في حاجة إلى إعادة النظر في تقويم الرجال ، لأن كثيراً ممن نعتبرهم دعائم النهضة الحديثة لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس كما يقول الدكتور محمد محمد حسين « إلا بسبب الدعايات المغرضة التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة ، لتحقق بذلك أغراضها في نشر مذاهبهم والتمكين لآرائهم . فوسائل النشر الضخمه التي يسيطر عليها الاستعمار والصهيونية العالمية لا تزال تلقي الأضواء على كتّاب ومفكّرين من نوع خاص في الوقت الذي يهمل فيه الكتّاب والمفكّرون الذي يصوّرون وجهات النظر المخالفة لهم » .

أما الاتجاه الأخير الذي اتجه إليه المسلمون في تحدي الثقافة الغربية لهم فهو

ذلك الذي يواجه الحضارة الغربية مواجهة الواثق بنفسه ، المتمكن مما عنده من إمكانات وطاقات ، فهو يميز بين الثقافة كمذهب ورأي وروح تتميز به الأمة عن غيرها ، وبين شؤون الحضارة والعمران والمدنية ، ويدعو إلى إيجاد تيار قوي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان ، مترفع عن التقليد غير خاضع للمظاهر داعٍ إلى الأخذ بطريق مبتكر يجمع بين الإيمان المنبثق عن الاعتقاد بالأنبياء والرسل وبين العلم الذي هو ليس ملكاً لبلد أو شعب وإنما هو للناس جميعاً . هذا الاتجاه يحاول أن يأخذ من الدين الدوافع الخيرة ومن الغرب الآلات والوسائل الفنية — إلى أمد — ويعامل الحضارة الغربية كمادة خام يستفاد منها للخير أو للشر .

هذا الاتجاه يحاول أن يجمع بين حسنات الشرق والغرب وقوة الروح والمادة وإخراج منهج جديد يجدر بالغرب نفسه أن يقلده لأنه يوازن بين حاجات النفس والجسد ، الروح والمادة ، الفرد والمجتمع ، وهو يحاول في نفس الوقت أن يبقي المسلم على مستوى الشعور أبداً بأنه صاحب عقيدة ورسالة وثقافة ومنهج في الحياة ، وأن هذه العقيدة والرسالة لن تعطي ثمراتها إلاّ إذا فهمها أصحابها وحملوها للناس .

وقد ظهر هذا الاتجاه في عدد من البلاد الإسلامية :

ففي الهند ندوة العلماء التي أعلنت عن أهدافها بعبارات محددة « إحداث فكر جديد يجمع بين محاسن القديم والجديد ، بين القديم الصالح والجديد النافع ، بين التصلب في الأصول والغايات والتوسع والمرونة في الفروع والآلات » .

وفي باكستان تحدد الجماعة الإسلامية أهدافها على النحو التالي :

١ — دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة : أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره .

٢ — دعوتنا إلى كل من أظهر الرضى بالإسلام ديناً أن يخلصوا دينهم لله ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق وأعمالهم من التناقض .

٣ – ودعوتنا لجميع أهل الأرض أن يحدثوا إصلاحاً عاماً في أصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً ، وأن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال مؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

ويرى زعيم هذه الحركة الأستاذ المودودي ، أن تحقيق هذه الأهداف لا يقوم به إلا رجال يؤمنون بالأخلاق الإسلامية ويطبقونها ، ويؤمنون بالحقوق المتساوية لجميع البشر ، ولا يستغلون الناحية العاطفية الأساسية في طبيعة الإنسان لبلوغ أهدافهم .

أما في السعودية فقد بدأت الحركة الإصلاحية الإسلامية بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتأثر كلياً بالمجتهد الأكبر ابن تيمية ودعوته الإصلاحية ، وملخص ما دعا إليه ابن عبد الوهاب هو العودة إلى الدين الصحيح ونبذ البدع والخرافات وكل ما هو دخيل على الإسلام والفكر الإسلامي ، والاستقاء من معين الإسلام الصافي : القرآن والسنة وعلم السلف الصالح . وكانت حركته هذه بداية يقظة في العالم الإسلامي تدعو للعمل على سيادة مبادىء الإسلام الصحيحة والقضاء على الفساد وتأسيس دولة إسلامية وحكومة صالحة تحكم بمبادىء الإسلام وتمثل أحكامه وتقيم حدوده .

ومن الحركات التي نحت هذا المنحى في الدعوة إلى الاحتفاظ بالإسلام وثقافته وشخصية الأمة الإسلامية مستقلة متميزة ، الحركة السنوسية في ليبيا ، وقد تأثرت بآراء محمد بن عبد الوهاب ، ولكنها اتخذت لها طابعاً صوفياً ليس فيه انحراف بعض الصوفيين واعوجاجهم . واستطاعت السنوسية أن تقوم بحركة فريدة في المجتمع الإسلامي المعاصر إذ جمعت بين الإيمان والعمل ، بين الفكر والسلوك ، عن طريق نظام التكايا التي تعيش فيها الجماعات المؤمنة ، إلاّ أن الفرد في التكية لم يكن عاطلاً عن العمل بل كان يعمل في إحدى الفعاليات الجماعية المفيدة كالزراعة والتجارة ، وكانت التكية تكفي نفسها ، وقد استطاعت السنوسية بإيجابيتها ونظامها الفريد لا أن تعيد الثقة إلى المسلمين بثقافتهم وتقاليدهم

فحسب بل وأن تقف أمام الاستعمار الإيطالي وقفة لم يُعرف لها مثيل في حركات المقاومة والتحرير .

أما في الجزائر فقد كان لجمعية العلماء الجزائريين – وزعيمها عبد الحميد بن باديس ثمّ الشيخ الإبراهيمي من بعده – وما انبثق عنها من مؤسسات مختلفة أهمها مدارس القرآن الكريم فضلها في تبني هذا الاتجاه ، وقد استطاعت عن طريق مدارسها أن تحافظ على ثقافة الشعب الجزائري الأصيلة وارتباطه بالإسلام والعروبة .

أما في أندونيسيا فإن أبرز الجماعات الداعية إلى هذا الاتجاه جماعة دار الإسلام ، وفي تركيا نجد الحركة النورية التي أسسها الشيخ سعيد النورسي رحمه الله .

ومن هذه الحركات أيضاً جماعة الإخوان المسلمين التي شملت البلاد العربية بلا استثناء ، والتي تعد أوسع حركة إسلامية شاملة عرفها المسلمون في العصر الحديث .

وقد قامت هذه الحركة على النقد الجريء لحضارة الغرب وثقافته ومواجهتها وجهاً لوجه والظهور أمام الغرب بمظهر الداعي المهاجم ، وكان هذا الموقف يتطلّب دراسة أعمق وجهوداً أكثر ترابطاً وتركيزاً ، ومعرفة أدق بطبيعة الحضارة الغربية وتركيبها ، وحماسة أشد في الدعوة إلى الإسلام ونظمه ومناهجه وثقافته ، كما يتطلب موقفاً غير موقف الزعيم السياسي الذي وقفه جمال الدين أو موقف المحامي المدافع عن الثقافة الإسلامية مع محاولة التوفيق بينه وبين الحضارة الغربية الذي وقفه محمد عبده [1] .

والحق إن نقد الحضارة الغربية كان قد بدأ منذ أمد ، ومن أوائل من ساهم في هذا الموضوع الأمير شكيب أرسلان في كتابه « لماذا تأخر المسلمون وتقدم

---

١ – الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية .

غيرهم » وقد بدأ نقده بالإشارة إلى حقيقة هامة وهي انه « ليس كل شيء قديم منبوذاً ، كما انه ليس كلّ شيء جديد مرغوباً فيه ، بل ينبغي أن ينظر في العلم إلى الأصلح وفي العمل إلى الأصلح بدون ملاحظة إن هذا جديد وذاك قديم » .

وهو يرى أن الدعوة إلى الاستفادة من الغرب في حد ذاتها ليست شيئاً خطيراً ، ولكن الأخذ بالثقافة الغربية على علاته هو الخطر ، يقول الأمير أرسلان « أن الغرب ساد الشرق وغلب على المعمور ، ورأى الشرقيون أنفسهم قد أحيط بهم وأصبحوا لا يملكون مع الغربيين أمراً، فنهضوا يبتغون أسباب الخلاص من سيطرة الغرب فقالوا : ليس لنا إلا أن نقاتله بسلاحه الذي كان سبب نجاحه ولما كان سلاحه هو الثقافة الأوروبية المبني أكثرها على العلوم الطبيعية والتي أمكنت الغرب من تسخير الماء والكهرباء ، قالوا لا بد لنا من أن نختار لأنفسنا هذه الثقافة » .

ثمّ يقول الأمير شكيب « وحتى هنا الأمر ليس خطيراً ولكن الخطير أن نأخذ هذه الثقافة بحذافيرها ونقبلها على علاّتها وأن نتلقى هذه النظريات كلها من مادي ومعنوي بدون استثناء » .

ثمّ ينهي الأمير شكيب رأيه بالإشارة إلى أن الاستفادة من العلم شيء والتخلي عن الشخصية شيء آخر ، وليس يقتضي اقتباس علوم الأوروبيين أن ننكر أصلنا ونجحد قوميتنا من أجلها ، لأننا نستطيع أن نتعلمها ونحن باقون على إسلامنا وعروبتنا ، ويضرب لذلك مثلاً باليابانيين الذين نقلوا جميع هذه العلوم إلى بلادهم وفاقوا فيها أهلها ولم يزالوا يابانيّين ، وبالافرنج أنفسهم الذين نقلوا علوم الشرق من قبل إلى بلادهم وأبوا أن يكونوا شرقيين .

وممن ساهم في نقد الحضارة الغربية وثقافتها المفكر الهندي المسلم إقبال ، وقد أشار في نقده إلى أن الدعوة إلى الفناء في هذه الحضارة كانت بسبب الدهشة أو المفاجأة الأولى ، ولكن بعد أن زالت هذه الدهشة وذهب عدد كبير من الشباب المسلم إلى أوروبا للدراسة حيث تكشفت له الحياة الغربية رجع كثير منهم يائساً من مستقبل هذه الحضارة ناقداً لها .

حلّق إقبال في نقده للحضارة الغربية في كتاب « التجديد الديني في الإسلام» تحليقاً يجعله يفوق ما فعله كبار مفكري العالم وفلاسفته ، وفي رأي إقبال أن جميع المذاهب السياسية والفكرية والاقتصادية التي انبثقت عن الحضارة الغربية سواء « ان الرأسمالية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة والقلق والسآمة والجهل بالله والخداع للإنسانية ، إن الشيوعية تقضي على العلم والدين والقيم ، والرأسمالية تنزع الروح من أجساد الأحياء وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، ولقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادة جسمهما قوي ناضر وقلبهما مظلم فاجر » .

إن كل ما تدعيه أوروبا من العلم والحكمة في رأي إقبال ليس إلاّ مظاهر جوفاء تختفي من ورائها أهداف مشبوهة « إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح بها أوروبا ليست إلاّ مظاهر جوفاء وليست وراءها حقيقة ، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون دروسهم عن المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية » . لذلك فإن إقبال لا يريد للمسلم المعاصر أن يكون كالغربي المعاصر لأن الرجل الغربي بما له من فلسفات نقدية وتخصص علمي يجد نفسه في ورطة ، فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه لكنه قد سلبه إيمانه بمصيره .

ويتطلّع إقبال أخيراً إلى عالم جديد تتغير فيه هذه الأسس وتلفظ فيه حياة المادة والمقامرة أنفاسها الأخيرة « إن العصر يتمخض عن عالم جديد ، إن العالم القديم الذي حوّله الغربيون مكاناً للقمار يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم يلفظ انفاسه الأخيرة » .

وقد اشترك الكثيرون من المفكرين المسلمين من أصحاب هذا الاتجاه في نقد الثقافة الغربية وإعادة الثقة بالثقافة الإسلامية ومنابعها الأصيلة ، ولما كنا لا نستطيع في هذه العجالة أن نعرض لآرائهم فإننا سنكتفي بالإشارة إلى بعض مؤلفاتهم .

للأستاذ حسن البنا : مجموعة رسائله .

للأستاذ سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ، المستقبل لهذا الدين ، العدالة الاجتماعية في الإسلام ، معالم في الطريق .

للمودودي : تجديد الدين وإحياؤه ، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم ، نحن والحضارة الغربية .

لمالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي ، مشكلة الثقافة ، فكرة كومنولث إسلامي ، آفاق جزائرية ، المعركة المفاهيمية في البلدان المستعمرة .

للأستاذ علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام .

للأمير شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم .

للأستاذ أبي الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية .

للدكتور محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي .
للدكتور محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر .

لمصطفى صادق الرافعي : المعركة بين القديم والحديث .

للأستاذ محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي .

للدكتور مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا .

وقد تركت هذه الجهود أثرها وأوجدت تياراً قوي الثقة بالنفس بعد أن وصل فقدان المسلمين الثقة بأنفسهم ومظاهر شخصيتهم حداً مخجلاً جعل الدكتور طه حسين يعتذر عن بدء محاضرة له في اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه قائلاً « سيضحك مني بعض الحاضرين إذا سمعني أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه لأن ذلك يخالف عادة العصر » .

نعود بعد هذا الاستطراد إلى الحركة الإسلامية الحديثة في البلاد العربية

والإسلامية فنجد أنها استطاعت أن تحقق الأهداف التالية :

١ ــ إعادة الثقة إلى المسلمين برسالتهم وثقافتهم وتاريخهم ومستقبلهم .

٢ ــ رد الاعتبار للقيم الإسلامية ورفع ما أثير حولها من شبه وشكوك .

٣ ــ السير بالثقافة الإسلامية من نقطة الركود التي وقفت عندها في حياة المسلمين إلى حياة المسلم المعاصر ، حتى لا يقف مسلم موقف المتردد بين أمسه وحاضره .

٤ ــ تقديم تفكير يقوم على نقد وبناء ، ويخلص إلى اعتبار قيمة واحدة هي قيمة الإسلام في التوجيه الإسلامي .

٥ ــ الكشف عن الإسلام مصدر قوّة وغاية في نفسها ، ومصدر قوة في الحياة كذلك .

٦ ــ إيجاد تيار كبير في البلاد الإسلامية يدعو إلى تحقيق محافظة المسلمين على الشخصية الإسلامية وتميزها واستقلالها .

عالميّة الإسلام وانسانيّته

جاء الإسلام ليكون رسالة السماء إلى الأرض في مختلف مجتمعاتها وظروفها ومراحلها الزمنية ، فهو دعوة إلى الناس جميعاً لا يختص بأمة دون أمة ولا زمن دون زمن ولا مجتمع دون مجتمع . وهو لم يميز في دعوته إلى طريق الله شعباً دون آخر ، فليس الإسلام قاصراً على العرب دون سواهم ولكنه بلاغ لجميع البشر . ويبدو ذلك واضحاً من خطاب القرآن للرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن حديثه عن القرآن وهو رسالة الإسلام . يقول الله تعالى « وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيراً ونذيراً » [1] ويقول « وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً [2] » والآية واضحة الدلالة في أن الرسول كان لعموم البشر . كما أن القرآن هدى لجميع الناس « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » [3] « إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » [4] « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً [5] » فلا يجوز لأمة أن تدّعي القرآن لنفسها دون الأمم

---

١ – سبأ : ٢٨ .
٢ – النساء : ١٠٥ .
٣ – آل عمران : ١٣٨ .
٤ – النساء : ٧٩ .
٥ – الإسراء : ١٠٦ .

الأخرى ، لأن الله أراده بياناً لجميع الناس وميزاناً للحكم يرجعون إليه في شؤونهم ومعاملاتهم .

وقد كانت هذه العالمية صفة دعوات الرسل جميعاً ، فما كان الأنبياء ، من قبل يختصون أمة دون أمة أخرى ، ولا كانت كتبهم قاصرة على تلك الأمة دون غيرها ، وإن بدا للناس أن عدداً كبيراً منهم بعث في أمة واحدة . « وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس » [1] .

ولعلّ السبب في هذه الصفة أن الإسلام ينظر إلى الناس على أنهم يشكلون وحدة إنسانية لا تمايز فيما بين شعوبها وأفرادها في الأصل أو الطبيعة أو المصير . فالناس جميعاً ينحدرون من أصل واحد « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة » [2] هذه النفس الواحدة عند التدقيق والتحليل تعود إلى ذكر وأنثى « يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى » [3] ثمّ إن هذا الأصل يعود بعد ذلك إلى أب واحد ينتسب إلى التراب ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلاّ بالتقوى » [4] .

والطبيعة الإنسانية واحدة لا تختلف ، فقد شاء الله أن يكون الإنسان من طين وأن ينفخ تعالى فيه من روحه « وإذ قال ربّك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » [5] ، وهذه

---

١ – آل عمران : ٣ – ٤ .

٢ – النساء : ١ .

٣ – الحجرات : ١٣ .

٤ – متفق عليه .

٥ – ص ٧١ – ٧٢ .

الطبيعة أو الفطرة التي فطر الإنسان عليها واحدة من حيث علاقتها بالأرض وما فيها من زينة ومتع وشهوات « زُين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا » [1] ، وهي واحدة من حيث استعدادها للخير أو الشر ، للصلاح أو الفساد « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » [2] ، وهي واحدة في ميلها إلى كفر النعمة والجحود وعدم الشكر « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » [3] « وإن كثيراً من الناس لفاسقون [4] » « ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » [5] .

ثمّ إن المصير واحد ، فلا بد أن تلقى كل نفس أجلها ، ولا بد أن تفنى البشرية جميعاً ، ثمّ يكون هناك بعث وسؤال وحساب ، ثمّ جنة الخلد أو نار جهنم . « كلّ نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » [6] « واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً » [7] هذا وإن أبلغ ما يدل على هذه الوحدة في الأصل والمصير قوله تعالى « ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفس واحدة » [8] فقد جمعت هذه الآية بين الخلق والبعث بعد الموت في أقصر عبارة وأوضحها .

وما دامت الإنسانية واحدة في أصلها وطبيعتها والمصير الذي ستنتهي إليه ، فإن من الطبيعي أن تنزل عليها رسالة واحدة ، وأن تترتب عليها تكاليف متشابهة ، وأن تطالب بعبادة الإله الواحد ، وأن يكون ما في هذا الكون والحياة للناس سواء في

---

١ — آل عمران : ١٤ .
٢ — الشمس ٧ — ١٠ .
٣ — البقرة : ٢٤٣ .
٤ — المائدة : ٤٩ .
٥ — الرعد : ١ .
٦ — آل عمران : ١٨٥ .
٧ — البقرة : ٤٨ .
٨ — لقمان : ٢٨ .

التمتع بما فيه ، أو في تدبر آياته ، أو في اعتباره طريق عبور إلى الآخرة وما فيها من حياة خالدة .

من أجل ذلك توجه القرآن إلى الناس جميعاً بالتدبر والتأمل للوصول إلى اكتشاف حقيقة الكون والحياة « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات [1] ، ومن أجل ذلك أمرهم جميعاً بعبادة خالق هذا الكون ومدبّره « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم » [2] ومن أجل ذلك أيضاً كانت دعوته إليهم جميعاً بالاستمتاع بما خلق الله لهم « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً » [3] . فالناس أمة واحدة في كلّ هذه الأمور وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم بقوله « كان الناس أمة واحدة » [4] « وما كان الناس إلاّ أمة واحدة فاختلفوا » [5] ، والميدان الوحيد الذي يتفاضل فيه الناس يتعلق بالرسالة وقبولها والتعلق بها والعمل من أجلها « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » [6] ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » [7] وهكذا ينفي الإسلام كافة الأسباب التي تعيق من استقبال الناس لرسالة الإسلام أو تسبب وجود التمايز والتفاضل على غير أساس معقول . ولعل من أهم أسباب التمايز والتعصب التي لا يرضى عنها الإسلام ، التعصب للون أو للطبقة أو للجنس والقوم ، وسنعرض بإيجاز موقف الرسالة المحمدية من جميع أنواع العصبيات .

---

١ – آل عمران : ١٩٠ .
٢ – البقرة : ٢١ .
٣ – البقرة : ١٦٨ .
٤ – البقرة : ٢١٣ .
٥ – يونس : ١٩ .
٦ – آل عمران : ١١٠ .
٧ – البقرة : ١٤٣ .

التعصب للـــون :

إن التمايز باللون ليس له مكان في عقيدة تؤمن بوحدة الإنسانية كالعقيدة الإسلامية ، فليس هناك مجـال لافتراض وجود الدم الأزرق النبيل الذي يقسم الناس إلى أجناس وطبقات ، وليس هناك مجال لأن يستغل الجنس الذي ينتمي إلى اللون الأبيض خلقة طبيعية لا يد للإنسان فيها ليتعالى على الآخرين . « إن الحضارة التي لا يستعلى فيها عرق على عرق ولا لون على لون هي الحضارة التي يسعد بها الإنسان العاقل الكريم وتسعد بها الإنسانية الواعية الكريمة ، والحضارة التي يعلو فيها الأبيض ويمتهن الأسود ، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ويشقى بها الملونون هي الحضارة الجاهلية التي ترتد بها الإنسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء »[1] وما أروع وصف الرسول عليه السلام لمن يتعلق بمثل هذه الأوهام بقوله : إنك امرؤ فيك جاهلية ، وقد قالها عليه السلام لصحابي جليل عيّر مسلماً آخر بقوله يا ابن السوداء ، فجاءت هذه العبارة لتكون حدّاً فاصلاً بين العلم والجهل ، بين الحضارة الإنسانية والحضارة الجاهلية ..

ولم تكن النظرة الإسلامية هنا مجرد نظرية أو دعوة مجردة عن التطبيق العملي ، فقد نفذت على أوسع المستويات وأشملها ، وفي جميع الميادين والموضوعات . ففي المسجد يلتقي الأبيض والأسود على صعيد واحد من العبودية لله عز وجل والخشوع بين يديه ،وفي الحج تلتقي العناصر البشرية كلّها من بيضاء وملونة على صعيد واحد وبثياب واحدة من غير تمييز بين أبيض وأسود أو استعلاء من البيض على السود ، ولقد بلغت النظرة الإنسانية مداها في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلّم بلالاً الحبشي أن يؤذن فوق الكعبة يوم الفتح ، يعلن كلمة الحق بين الناس ، والكعبة أشرف بيت عند العرب في الجاهلية ، وقبلة المؤمنين بعد الإسلام، وقد اختار الرسول بلالاً ذا البشرة السوداء من بين سائر المسلمين وفيهم أشراف قريش ونبلاؤها ، ليصعد على الكعبة المقدسة ، وكان هذا العمل تأكيداً على

---

١ – مصطفى السباعي : من روائع حضارتنا : ١٤ .

كرامة الإنسان ومكانته التي يستحقها لعلمه وأخلاقه وإيمانه لا لبشرته وبياضه .

وفي تاريخنا الإسلامي أمثلة كثيرة عن إنسانية الحضارة الإسلامية ومساواتها بين الأجناس والعناصر والألوان ، في تاريخنا أمثلة عن القواد العسكريين الكبار ، وعن العلماء المبرزين ، وعن الحكام الذين يدين لهم الناس بالطاعة ، وعن القضاة وغيرهم ... ولعل مثل هذا الأمر لا يتصور في حضارة حديثة كالحضارة الأمريكية في أيامنا هذه ، غير أن حضارتنا فعلته قبل أربعة عشر قرناً .

يذكر المرحوم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه الجليل « من روائع حضارتنا » [1] أنه لما توغل المسلمون في مصر فاتحين حتى وقفوا أمام حصن بابليون ، رغب المقوقس في المفاوضة مع المسلمين ، فأرسل إليهم وفداً ليعلم ما يريدون ، ثمّ طلب منهم أن يرسلوا إليه وفداً ، فأرسل إليه عمرو بن العاص عشرة نفر فيهم عُبادة بن الصامت ، وكان عبادة أسود شديد السواد طويلاً ، حتى قالوا إن طوله عشرة أشبار ، وأمره عمرو أن يكون هو الذي يتولى الكلام . فلمّا وصلوا إلى المقوقس تقدمهم عبادة بن الصامت ، فهابه المقوقس لسواده وقال لهم : نحّوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني ، فقال رجال الوفد جميعاً إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً وهو خيرنا والمقدم علينا وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله ، فقال لهم : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا إنّه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً ، وليس ينكر السواد فينا ، فقال المقوقس لعُبادة : تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهاب سوادك ، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة ، فقال عبادة وقد رأى فزع المقوقس من السواد : إن في جيشنا ألف أسود هم أشد سواداً مني .

وهكذا ففي حين كان الناس جميعاً — حتى المتحضرون في القرن

---

١ — من روائع حضارتنا ص ٦٤ .

العشرين – يرون السواد منقصة ، ويرون الأسود غير أهـل لأن يتولى مراتب البيض، كانت حضارتنا تحطم هذه الشرور وتسفه هذه الآراء ،معلنة إلغاء جميع أنواع التفاضل التي تعود إلى لون البشرة أو اختلاف الدم . مؤكدة أن الأسود يتقدّم على الأبيض حين يكون أكثر علماً وأحكم رأياً وأجرأ قلباً . إن التمييز العنصري بين البيض والسود لم يكن مما تقره حضارتنا أو تعترف به ، ولم يعرف في التاريخ الإسلامي أن مجتمعاً إسلامياً كان يقيم مجتمعات مغلقة على البيض لا يساكنها فيها السود ، كما انه لم يسجل حادثة واحدة اضطهد فيها إنسان لسبب لونه ، لأن البياض والسواد في حضارتنا ليس إلاّ بياض الأعمال أو سوادها .

ومع أن الحضارة الحديثة تعدّ من أشهر الحضارات التي عرفت بأنها قامت على مبادىء الإخاء والمساواة بين الناس ، ومع أن هيئة الأمم المتحدة أعلنت ميثاق حقوق الإنسان الذي يمنع نظرياً جميع أنواع التمايز ويعطي الناس جميعاً حقوقاً واحدة ، إلاّ أن العالم لا يزال يطبق التمييز العنصري بسبب اللون في أبشع صوره وأشكاله .

ففي أميركا بلد الحرية والعلم الذي يضع الإنسان على القمر ، لا تزال تجري مأساة من أكبر مآسي التاريخ الإنساني ، وهي مأساة اضطهاد الزنوج ، وعدم الاعتراف للعناصر الملونة بالمرتبة الإنسانية التي يتمتع بها الأبيض ، ومع أن الزنوج يعتبرون مواطنين في هذه الدولة التي تحمل أعلام الحضارة الحديثة المعاصرة ، إلاّ أنهم لا يستطيعون أن يمارسوا عملياً حقوق المواطن كما يمارسها المواطن الأبيض ، وفي ذلك يقول أحد رجال السياسة من البيض هناك ، « ليس لأي رجل ملوّن يغمر قلبه الرغبة في المساواة السياسية عمل ما في ولايات الجنوب إن هذه البلاد ملك للرجل الأبيض ويجب أن تظلّ كذلك » . [1]

وتبدو مظاهر اضطهاد الزنوج في أمريكا في جميع الميادين ، فالمدارس تقوم في معظم الولايات وخاصة في الولايات الجنوبية على أساس الانفصال

---

١ – مصطفى السباعي ، من روائع حضارتنا ص ٦٨ .

الكامل بين الزنوج والبيض ، فلا يسمح لأطفال الزنوج أن يتعلموا مع أطفال البيض وإنما لكل فريق مدارسه الخاصة وكتبه الخاصة ، وقد تحدث بعض المدارس أوامر حكومة الولايات المتحدة حين رفضت أن تطبق حكم المحكمة الفيدرالية العليا بإلزامها بالسماح لإبناء الزنوج أن يتعلموا في مدارس البيض ، واضطرت الحكومة المركزية إلى أن ترسل الحرس الوطني ليقوم بحراسة أبناء الزنوج الذين سيدخلون هذه المدارس بناء على حكم القضاء ، وقد كان موقف أبناء البيض : الإضراب عن تلقي العلم مع هؤلاء .

ويفرض على القطارات الحديدية والسيارات العامة والمستشفيات أن تقيم عربات أو غرفاً خاصة بالزنوج ، وتقضي قوانين بعض الولايات بأن لا يسمح للعمال الزنوج أن يقيموا مع العمال البيض في المصانع أو الدخول من الأبواب المخصصة للبيض ، أما في ميدان الزواج فإن معظم الولايات تمنع زواج البيضاء بالزنجي أو الأبيض بالزنجية وتنص على بطلان مثل هذا الزواج . وحتى ممارسة الشعائر الدينية تقوم على الانفصال أيضاً ، إذ لا يسمح للزنوج بدخول كنائس البيض ، وقد حدث أن دخل زنجي من جمهورية بناما كنيسة كاثوليكية في واشنطن . وفيما هو مستغرق في صلاته سعى إليه أحد القسس وقدم له قصاصة من ورق كتب فيها عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية ، وحين سئل القس عن سر هذا التصرّف أجاب : إن في المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزنوج يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدي ربه [1] .

وفي إفريقيا نجد أمثلة صارخة عن هذا التمييز الذي لا يعرف الرحمة ، ففي أكثر من قطر من أقطارها أقليات بيضاء دخلت فاتحة غازية ، وهي تعتبر البلاد وما فيها ملكاً لها من دون أهلها ، ولا تقر لأصحاب البلاد وهم الأكثرية الساحقة بالحقوق الإنسانية والوطنية ، نجد ذلك في اتحاد جنوب إفريقيا ، ونجده في روديسيا وفي أنغولا وموزانبيق وغيرها من أقطار هذه القارة الواسعة .

---

١ – المصدر السابق ص ٧٠ .

ولعل قائلاً أن يقول : إن هذا قائم في الطرف الغربي من العالم ، فماذا عن الطرف الشرقي ، عن روسيا السوفياتية وباقي البلاد الاشتراكية الأوروبية الأخرى . لقد اعتادت هذه الأقطار أن تهاجم الدول الأخرى بحجة أنها تمارس التمييز العنصري ، كما اعتادت أن تتشدق كثيراً بالشعارات التي تعلن المساواة وتصب اللعنات على دعاة العنصرية والتفرقة بسبب اللون أو الجنس أو ... وعلى هذا الأساس تحوّل عدد كبير من الطلاب من أقطار إفريقيا النامية الحديثة الاستقلال إلى روسيا وحليفاتها لينعموا بالمساواة والحرية المزعومتين ولكنهم جوبهوا بجدار التمييز يقف حائلاً بينهم وبين أهل هذه البلاد ، ولما تظاهر الطلبة الإفريقيون احتجاجاً على هذه المعاملة صاح فيهم الطلبة الشيوعيون : عودوا إلى الغابة أيها القردة [1] . ويروي صحفي مصري ــ كان اشتراكياً قبل أن تقع له هذه الحادثة ــ القصة التالية [2] « عندما أقمت في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٨ كنت أعيش بالمستشفيات أو اتردّد عليها ، وكانت تجري لي كل ثلاثة أيام عملية بذل بالجيب الأنفي ولذلك كانت مناديلي ملوّثة دوماً بالدم ، وكنت آخذها هي وبقية ملابسي إلى مغسلة حكومية رخيصة لأن غسلها بالفنادق باهظ التكلفة ، ومع الزمن نشأت بيني وبين عاملة المغسلة العجوز ــ ولا يضعون سوى العجائز في مثل هذه الأعمال ــ علاقة فيها إعزاز كبير رغم قبحها غير المعقول الذي كان يغطيه حنانها .

وذهلت عندما اكتشفت مع تحسن لغتي التشيكوسلوفاكية بعد أربعة أشهر أنها كانت تظنني مع كل ملامحي الشرقية الأصيلة طيلة هذه المدة رجلاً انجليزياً لمجرد انني أتكلم الانجليزية وأدخن سجائر أمريكية كانت تفرح بأن تأخذ بعضها لابنها ، واندفعت أصحح لها خطأها وأخبرها في طيبة قلب بأنني مصري ولست إنجليزياً ، وسألتني مستنكرة : أنت مصري ولست إنجليزياً ، وأجبتها انني

---

١ ــ محمد جلال كشك ، الماركسية والغزو الفكري : ٢٨ .

٢ ــ المصدر السابق ، نفس الصفحة ، نقلا عن كتاب : الاشتراكية ، الشيوعية الأوروبية ، للأستاذ وسيم خالد .

أفتخر بانني مصري ولست إنجليزياً » . وفي سكون أعادت وضع الغسيل في شنطتي (محفظتي) وهي تتأفف عندما تمسك مناديلي من أطرافها كما لو كانت شيئاً نجساً وقالت هذه مناديل قذرة مليئة بالدماء لا يمكن غسلها . وأجبتها في ضحكة باردة انني صحفي وانني سأذهب في الحال إلى وزارة الخارجية لإخبارهم بامتناعها عن تسلم ملابسي بعد أربعة أشهر لمجرد أنها عرفت أنني مصري ولست إنجليزياً . وفي نفس التقزز أعادت فتح شنطتي وتسلمت الغسيل مرة أخرى وأعطتني ايصالاً دون أن تنطق بكلمة واحدة » .

هذا قليل من كثير عن أنباء التمييز بسبب اللون الذي ما يزال قائماً في أجزاء كثيرة من أنحاء العالم مع أننا نعيش في حضارة القرن العشرين ، الحضارة التي وصلت من الناحية المادية إلى أعلى مستوى بلغته أية حضارة أخرى ، وفي ذلك دلالة واضحة على أن الإيمان والمساواة وسائر القيم الأخرى لا تنفع فيها القوانين والأنظمة ومظاهر التقدم المادي لأنها تنبعث من القلب ، وقد أثبت الإسلام تفوقه في صياغة النفوس والقلوب ، ورغم مرور أربعة عشر قرناً على ظهوره فإنه ما يزال في المقدمة في هذا الميدان .

التعصب للطبقـــة :

قبل الحديث عن موقف الإسلام من الطبقية والطبقات ، يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة يقصد منها الوقوف على حقيقة الطبقة الاجتماعية وعوامل تكونها وتطورها التاريخي [1] .

ونلاحظ أن في كل مجتمع هيئات أو فئات تقوم على روابط الدم كالأسرة ، أو على روابط المهنة كالنقابات ، أو على روابط الجوار السكاني كأهل القرية والمدينة ، ولكن هناك فئات أخرى لا تقوم على هذه الروابط وإنما تعتمد على أساس التقارب في المراتب والمنازل وهذا ما يسمى بالطبقة الاجتماعية . ويمكن

---

١ ـ أنظر في ذلك بحثا مفصلا لنا في كتاب « علم الاجتماع » .

أن تعرف الطبقة الاجتماعية بأنها أجزاء من المجتمع أو مجموعات من أفراد يقف كلّ منهم على قدم المساواة مع الآخر ، ويتميز عن أجزاء المجتمع الأخرى بمعايير لارتفاع المكانة أو انخفاضها ، وهكذا كانت طبقة العمال والطبقة البورجوازية ، والطبقة الرأسمالية وطبقة الفلاحين ، وطبقة رجال الدين عند المسيحيين ، إلى غير ذلك .

وإذا حاولنا التعرف على حقيقة الطبقة فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى النظر إليها من زاويتين مختلفتين : الزاوية الموضوعية أي الطبقة كما يراها الباحث أو الغير على وجه العموم ، والزاوية الذاتية بمعنى الشعور الطبقي أي شعور المنتمي إلى طبقة من الطبقات .

فأما من الناحية الموضوعية فإن الطبقة تعني طريقة في السلوك والكلام والملبس والتعليم وعادات التعامل الاجتماعي ، فالملاحظ أن افراد الطبقة يتقاربون في هذه العادات والأنماط السلوكية ، وهذه العادات تعبر عن القيم التي تضعها المجتمعات على مختلف أساليب الحياة ، ولقد كانت هذه الأمور في الماضي أشدّ اختلافاً عنها في الحاضر ، ومع ذلك فإنّك اليوم تستطيع أن تميز فرداً من طبقة ما بأسلوب كلامه وتعامله لأنه ينبثق عن ثقافة معينة ، وتحرص الطبقة على أن تربي أبناءها على أنواع السلوك هذه وتثقفهم بثقافتها ، وهكذا تصبح أنواع الفروق في السلوك وسيلة لحفظ الحواجز الاجتماعية ونتيجة لهذه الحواجز في الوقت نفسه [1] . ولذلك تنتقل الطبقة بالوراثة وعن طريق الأجيال المتعاقبة .

أما من الناحية الذاتية فإن الطبقة تعني نمو مشاعر أو مجموعة استعدادات وجدانية خاصة ، هذه المشاعر على ثلاثة أنواع :

الأول شعور الفرد بالمساواة بالنسبة إلى أفراد الطبقة التي ينتمي إليها ، لذلك فإنه يحس بالاندماج معهم ورفع الكلفة فيما بينه وبينهم ، وعدم التحرج عندما يكون بين أظهرهم .

---

١ – الدكتور جينز برج ، علم الاجتماع ص ١٨٦ .

والثاني شعور الفرد بالدونية أو النقص بالنسبة إلى من هم أعلى في التدرّج الاجتماعي ، هذا الشعور قد يدفعه إلى عدم التوازن في سلوكه مع الطبقة الأعلى .

والثالث شعور الفرد بالرفعة أو التعالي بالنسبة إلى من هم دونه في المرتبة الاجتماعية ، وهذه المشاعر هي التي تشد الفرد برباط وثيق إلى الطبقة التي ينتمي اليها لرغبته بالحماية والأمن مع رغبته في الوصول إلى الطبقة الأعلى .

وقد قيلت آراء كثيرة في عوامل تكون الطبقة ، وتعصب بعض الباحثين لعامل أو أكثر ، لهذا فإننا سنعرض لهذه العوامل جميعاً لنرى إلى أي حد تؤثر في نشوء الطبقة وتكون سبباً من أسبابها .

وأول هذه العوامل العامل الاقتصادي ، أو مستوى المعيشة ، أو الثروة التي يمتلكها الأفراد ، لأنها على الأغلب هي التي تحدد نوع التعليم الذي يتلقاه الفرد والمهنة التي يمتهنها ، إلاّ أن الثروة لا تكفي لتكوين الطبقة ، لأن الغنى والفقر بحد ذاتهما ليسا من الأنماط الاجتماعية . وعلى أساس الثروة نستطيع أن نتصوّر تقسيم المجتمع إلى الطبقات التالية : طبقة العمال الذين يتقاضون أجراً محدداً لقاء تأجير عملهم لدى الآخرين ، وطبقة الرأسماليين الذين يجنون فائدة من أموالهم التي يشغلونها بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وطبقة الملاك الذين يحصلون على دخل مما يملكون من عقارات وأملاك أخرى .

وثاني هذه العوامل المهنة ، أو العمل الذي ينتسب إليه الفرد ، ونستطيع أن نلاحظ انقسام المجتمع بحسب هذا العامل إلى : طبقة العمال الذين يعملون بأيديهم في الأعمال الصناعية ، وطبقة الفلاحين الذين يمتهنون العمل اليدوي الزراعي ، وطبقة أصحاب المهن الحرة الذين يتكسبون بمهنهم مستقلين ، وغالباً ما تكون هذه المهن ليست يدوية خالصة وذلك كمهنة الطب أو الهندسة أو التعليم أو نحو ذلك . والواقع أن المهنة لها أثر كبير في الفروق الطبقية ، فالكاتب والعامل قد لا تفصل بينهما الثروة فيكون دخلهما متقارباً ولكنهما من طبقتين مختلفتين ، إلاّ أننا يجب أن نلاحظ بأن الطبقة تسبق المهنة ، فالإنسان ينتسب إلى الطبقة

أولاً ثمّ يكون عاملاً أو كاتباً ، كما نلاحظ أن الطبقة الواحدة قد تجمع بين طياتها أكثر من مهنة .

وثالث هذه العوامل الأسلوب العام في الحياة ، فنوع الحياة التي يحياها كل فرد أو كل فريق من الناس من عوامل تكوين الفروق الطبقية ، فهناك حياة فاخرة وحياة بسيطة ، ونستطيع أن نتصوّر تاجرين يختلفان في أسلوب حياتهما ومعاملتهما مع أنهما ينتسبان إلى فئة التجار ، ومن أجل هذا الاختلاف يكون أحدهما في طبقة والآخر في طبقة أخرى . فالتاجر الذي يشرف على أعماله التجارية من بعيد دون أن يتدخل تدخلاً مباشراً في عمليات البيع والشراء الجزئية يعتبر من الطبقة البورجوازية ، على عكس التاجر الذي يباشر أعماله بنفسه ويقوم بخدمة عملائه فإنه يعدّ من الطبقة العاملة .

ورابع هذه العوامل الثقافة ، فقد ذكر البعض درجة الثقافة والتعليم من جملة عوامل تكوين الطبقة الاجتماعية ، والأقرب إلى الصواب أن تعتبر الثقافة من عوامل التمييز بين الطبقات وليس من عوامل تكوينها ، بمعنى اننا نستطيع أن نميز بين أفراد الطبقات من أسلوب تفكيرهم ودرجة تعليمهم ونمط ثقافتهم .

ونستطيع أن نضيف إلى هذة العوامل عامل الدين ، الذي بقي لمدة طويلة يشكل سبباً من أسباب التمييز الطبقي .

ومن استعراضنا لهذه العوامل فإننا لا نستطيع أن نعتمد على عامل واحد منها في تكوين الطبقة ، لكننا نقول إنها عوامل مترابطة متشابكة يؤثر كل منها في وجود الفروق الطبقية وتدعيمها على مدى الزمن .

ولو أننا ألقينا نظرة على تطور النظام الطبقي في التاريخ ، فإننا نجد انفصالاً كاملاً بين الطبقات في عدد من المجتمعات المعاصرة لظهور الإسلام ، واستمر هذا الانفصال الطبقي في كثير من المجتمعات غير الإسلامية بعد الإسلام ، وما يزال هذا النظام سائداً عند عدد من الجماعات الإنسانية .

لقد كانت قريش قبل الإسلام تفرض لنفسها مرتبة خاصة وحقوقاً وتقاليد

ليست لسائر العرب ، وتقف في الحج بالمزدلفة حين يقف الناس جميعاً بعرفات ، ويقيم القرشيون على هذه الامتيازات منافع اقتصادية يفرضونها على سائر العرب ، فيحتمّون ألاّ يطوفوا بالبيت إلاّ في ملابس يشترونها من قريش وإلاّ طافوا بالبيت عراة [1] .

« وكان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحِرف وكان بين طبقات المجتمع هوة ساحقة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ولا يستشرف لما فوقه ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع [2] » وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية يظهر جلياً في مجالس الأمراء والأشراف حين يقوم الناس على رؤوس الأمراء وكأنهم جماد لا حراك بهم .

أما نظام الطبقات في الهند فإنه أشد قوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة ، حتى يمكن القول انه لم يعرف له مثيل في أمة من الأمم ، وقد امتهنت كرامة الإنسان في ظل هذا النظام واستهين بشرفه ، وزاد من ظلمة هذا النظام أن الهند اعترفت به دينياً ومدنياً وخضعت له آلاف السنين ولا تزال .

وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها قانون مدني وسياسي يُقسم أهل البلاد بموجبه إلى أربع طبقات متميزة وهي على الترتيب [3] : البراهمة أي طبقة الكهنة ورجال الدين [3] : رجال الحرب [3] : رجال الزراعة والتجارة [3] : رجال الخدمة . وقد مُنحت طبقة البراهمة حسب

---

١ – سيد قطب ، هذا الدين ص ٥٣ .

٢ – عن كتاب إيران في عهد الساسانيين ، نقلا عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للأستاذ أبي الحسن الندوي .

٣ – تعدد الآلهة من اعتقادات الهند الفاسدة .

هذا القانون امتيازات وحقوقاً ألحقتهم بالآلهة ، فهم صفوة الله وملوك الخلق وأفضل الخلائق وسادة الأرض ، والبرهمي مغفور ذنبه مهما ارتكب من الموبقات والجرائم وإذا قتل يُكتفي بحلق رأسه ، ولا يصلح أن يُجبي من ماله شيء مهما كانت البلاد في حاجة إلى المال . أما رجال الحرب فهم دون البراهمة وفوق الطبقتين التاليتين ويتمتعون بكثير من الامتيازات ، ويسمى رجال الخدمة وهم أدنى الطبقات بالمنبوذين ، وليس لهذه الطبقة أية حقوق ، حتى أن القانون يعتبرها أحط من البهائم وأذل من الكلاب ، ولا يسمح لأفرادها باقتناء المال أو ادخاره ، كما لا يسمح لهم بمجالسة البراهمة فإذا مسه بيد أو سبه اقتلع لسانه ، وما تزال الهند تعاني من هذه الطبقية القاسية ومن وجود المنبوذين على وجه الخصوص [1] .

أما أوروبا في العصور الوسطى أي في الوقت الذي كان العالم فيه ينعم بإنسانية الإسلام ، فقد كانت تخضع لنظام من الطبقات يفصل أفراد الأمة بعضها عن بعض ، ويجعل منها ثلاث طبقات : النبلاء أو الأشراف ، ورجال الدين ، والشعب وكانت هذه الطبقات متميزة محددة المعالم يختلف بعضها عن بعض بصورة واضحة بحيث لا يخطىء الإنسان معرفتها بمجرد النظر إليها .

وكان نظام المراتب في أوروبا مدعوماً بالقانون ، فالأشراف والنبلاء طبقة تتوارث الشرف بعضها عن بعض ، وكانوا يتمتعون في عهد الإقطاع بسلطان مطلق على الشعب الموجود في الاقطاعية من حيث جباية الضرائب وإصدار العقوبات وتنفيذها ، ثم كانوا بعد ذلك السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية . أما رجال الدين فكان لهم ثيابهم الخاصة التي تميزهم ، وكان لهم في تلك العصور سلطة كبرى ، وكان نفوذ البابا لا يقل عن نفوذ الملوك والأمراء والأشراف إن لم يزد عليهم جميعاً لأنه هو الذي يمنح لهؤلاء على الشعوب . وكان رجال الدين يشكلون طبقة ممتازة كما كان للكنيسة أوقافها وإتاواتها وجيوشها في كثير من الأحيان .

---

١ – أبو الحسن الندوي ، المرجع السابق ص ٤٨ – ٥١ .

أما الشعب – أو الطبقة الدنيا – فكانت عليه الواجبات دون ان تكون له حقوق ، وكان يتوارث القيود والذل والفقر والعبودية ، كما كان النبلاء يتوارثون النبالة . ولئن تغيرت الأسماء في أوروبا ، فحلّت الطبقة الرأسمالية محل طبقة الأشراف القديمة إلاّ أن جوهر الأمور لم يتغير ، فقد بقيت هذه الطبقة تملك المال والسلطان والقوة التي تسير بها دفة الحكم ، على الرغم من مظاهر الحرية التي تتمثل في الانتخابات وغير ذلك من أشكال الديموقراطية . أما في البلاد الشيوعية فقد قامت طبقة من نوع جديد هي طبقة الحزب الذي يتمتع بالسلطة والسيادة والتصرف بكل مقدرات الأمة وإمكانياتها ، مما لم يعرف له التاريخ مثيلاً في عصر من العصور .

ومن الواضح أن الإسلام الذي أعلن المساواة بين الناس في الأصل والمصير ورسالة الحياة ، وقرر إلغاء جميع أنواع التمايز التي تفرق بين الأفراد والجماعات ، هذا الإسلام لا يعترف بنظام الطبقات الذي تحدثنا عن بعض تطوراته التاريخية . وليس معنى ذلك أن الدين الإسلامي لا يسمح للكفايات والمزايا الخلقية بالمجال الذي يناسبها في الحياة العامة ، ولكنه لا يسمح بأن يحرم أحد حقه أو يقف حائل بينه وبين مجاله الذي استعد له بما هو أهله ، ولو لم يولد فيه ولم يكن منه بالنسب والوراثة . وهو لا يمنع التفاوت بين أقدار الناس وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين[1] «ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض» [2] «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات [3] »ولا يسوي بين العلماء والجهلاء «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» [4] وليس من العدل في الإسلام أن يختلف الناس بالجهد ويتساووا في الأرزاق «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات» [5] «والله فضّل بعضكم على

---

١ – عباس العقاد ، حقائق الإسلام ص ١٩١ .

٢ – الإسراء : ٥٥

٣ – البقرة : ٢٥٣

٤ – الزمر : ٩

٥ – الزخرف : ٣٢ .

بعض في الرزق» [1] ، إلاّ أن هذا التفاضل في العلم أو الرزق لا يقوم على النسب الموروث ولا على الغصب والسطوة وإنما يقوم على العمل ، ويجب أن لا يؤدي إلى إيجاد طبقات يستعلي بعضها على بعض ، والتفاوت في المراتب والأرزاق أمر واقع لا يمكن أن يزول ولا من المصلحة زواله ، وانظر إلى العالم كلّه فإنك لا بدّ أن تجد فيه هذا التفاوت ، ولو نظرت إلى الدول الشيوعية وجدت الأمر لا يختلف كثيراً عن المجتمعات الأخرى وإن تغيرت المصطلحات والأسماء ، وإلاّ فهل يتناول جميع الناس فيها أجراً واحداً أم إن بعضهم مفضل على بعض في الرزق ، وهل جميع الناس هناك رؤساء أم جميعهم مرؤوسون ، وهل جميعهم ضباط أم جميعهم جنود ، لا بد أن بعضهم قد رفع فوق بعض درجات ، فهذا أمر لا معدى عنه وهو حقيقة واقعة في كل مكان [2] . وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في الآيات السابقة .

مظهر واحد من نظام الطبقات تحدث عنه القرآن هو وجود الأرقاء ، وقد سبق أن ذكرنا أن الرق كان نظاماً مرهوناً بظروف لم يوجدها الإسلام ولا أمكنه التخلص منها في ذلك الحين ، وإن كان قد أوجد السبل الكفيلة بإزالتها ، فالرق ليس أصلا من أصول المجتمع الإسلامي ولكنه ضرورة عارضة تنتهي بزوال أسبابها والظروف الملجئة لها . وقد حلت محل الطبقية في الإسلام أخوة تجمع أفراد المجتمع وتضمهم إلى بعضهم : «إنما المؤمنون إخوة» [3] .

لقد أوجدت هذه الأخوة عند الفرد المسلم الإحساس بالجماعة الإسلامية وخيرها ، وعند الجماعة الإحساس بالفرد ومصالحه وخيره ، ونتج عن هذا الإحساس المتبادل تضامن روحي ومادي هدفهما تمتين هذه الأخوة وبقاؤها [4] وأصبح

---

١ – النحل.: ٧١ .

٢ – محمد قطب ، شبهات حول الإسلام ١٠٢ .

٣ – الحجرات : ١٠ .

٤ – د . صلاح الدين المنجد ، المجتمع الإسلامي في ظل العدالة ص ٣٨ .

المجتمع بهذه الأخوة وحدة متآلفة وقد عبر عن هذه الوحدة حديث الرسول عليه السلام بقوله : «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [1]

التعصب للقوم (القومية أو العنصرية) :

مع أن كلمتي – الأمة والقومية – بمفهومهما الاصطلاحي حديثتا العهد إذ ترجعان إلى القرن التاسع عشر الميلادي ؛ إلا أن جوهرهما قديم ، وهو تفضيل آصرة القوم أو الجنس على غيرها من الأواصر الأخرى : «فالهيئة التي يعبر عنها اليوم «بالأمة» و «القومية» كانت في بابل ومصر وفارس والروم واليونان على مثل ما هي عليه اليوم في فرنسا وبريطانيا وأميركا واليابان »[2] إن القومية تتولد من الشعور القوي النامي لدى جماعة إنسانية بالارتباط الوثيق القائم على الشعب أو الجنس أو الاشتراك باللغة والتاريخ والمصالح الاقتصادية .

ومن استقرائنا للعوامل التي تكون القومية يمكن القول بأن أهمها : وحدة الجنس أو العنصر ، ووحدة المولد أو المنشأ أو ما يسمى بالوطنية ، ووحدة اللغة ، ووحدة المشاعر والاشتراك بتاريخ واحد ، وأخيراً وحدة المصالح الاقتصادية . وإن هذه العوامل كلها أو بعضها هي التي توثق الأواصر بين جماعة من الناس وتتحكم في عقولهم ومشاعرهم حتى يصبحوا يداً واحدة على من سواهم ، ينتصرون لبعضهم بسبب هذه القومية ، وعلى أساسها يسالمون من يسالمون ويعادون من يعادون ويقومون الناس والأفكار والآراء .

وحين تحلل هذه العوامل تجد أنها بحد ذاتها زائفة لا تعتمد على حقيقة ، فالعنصرية أو الانتماء إلى جنس واحد ، شعور وهمي إذ لا يستطيع شعب من الشعوب أن يدعي أنـــه يحتفظ بنقائه الجنسي على مدار القرون ، فالشعوب

---

١ – البخاري ومسلم .

٢ – أبو الأعلى المودودي ، بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية .

متصلة ببعضها ويتم هذا الاتصال على أشكال متعددة ، منها الاتصال العادي الذي يتم بين الناس في حالات الاستقرار ، ومنها الهجرات الطوعية أو الكرهية ، ومنها الغزو الحربي ، والاختلاط الجنسي أصل في جميع هذه الاتصالات والاحتكاكات ، فحين يزعم آري أنه يحتفظ بنقاء دمه ، أو يزعم ساميّ مثل ذلك ، فإن كليهما يقيم زعمه على أوهام وضلالات . ولقد حاولت المانيا في عهد من العهود أن تثبت هذه النظرية ففشلت فشلا ذريعاً ، وهذا مصير كل دعوة تقوم على العنصرية .

أما الوطنية أو وحدة المنشأ فإنها — مع اعترافنا بأهمية شعور المرء بالانتساب إلى وطن يرتبط معه بصلة روحية — تقوم على أسس اعتبارية وهمية ، وإلا فهل هناك ما يمنع من أن يمتد خط هذا الوطن حتى يشمل الأرض كلها ، إن وطن الإنسان جزء من هذه الأرض فلماذا لا يكون شعوره أنه يستوطن هذه الأرض كلها ، وأن كل من يسكن هذه الأرض فهم إخوة له في الوطن ، له في كل بقعة من بقاعها مثل ما له من الحقوق . إن الآصرة الحقيقية التي تشد الناس إلى بعضهم هي العقيدة ، وليس غريباً أن يشعر كثير ممن ينتسبون إلى وطن ما أن صلتهم بمواطنين من أوطان أخرى أقوى وأشد ، ولعل هذه الظاهرة أقوى ما تكون في مجتمعاتنا المعاصرة .

وليست اللغة عند التحقيق بأكثر أثراً من العوامل السابقة ، إن اللغة لا تعدو أن تكون أداة للتعبير بين الناس ، وهي لا شك توجد عند الجماعات شيئاً من المشاعر المشتركة ، ولكنها لا تستلزم حتماً وحدة التفكير والاتجاه ، وفي مجتمعاتنا الحديثة عدد من القوميات والأمم التي لا توحد بينها لغة واحدة كالهند والصين وسويسرا وغيرها ، وهكذا فإن اللغة لا تصلح أساساً كافياً لتوزيع الإنسانية وإحداث الامتيازات والفروق القومية بين أبنائها [1] .

أما وحدة المصالح الاقتصادية : فإنها إذا بدت سبباً لقيام الوحدة بين أفراد

---

١ — أبو الأعلى المودودي ، المرجع السابق ص ١٢ .

أو جماعة إنسانية إلا أنها لا تكفي لإيجاد الشعور القومي ، ثم إن المغـالاة بالأخذ بالمصالح الاقتصادية لكل أمة من الأمم يضيق دائرة العيش أمام هذه الأمم جميعاً لأنه سيدفع كلا منها إلى نوع من الأثرة وتطبيق أنواع من الحواجز الاقتصادية التي تضيع معها كل فائدة مرجوة .

أما أن وحدة المشاعر والتاريخ هي التي تنشىء القوميات والأمم ، فإنه يشير إلى جزء من الحقيقة ولكنه لا يعبر عنها بجلاء ووضوح ، لأن وحدة المشاعر لا تتكون إلا نتيجة للاشتراك بعقيدة واحدة وأفكار وآراء واتجاهات معينة تنبثق عن هذه العقيدة ، مع ما يصاحب ذلك من تاريخ طويل تتطور فيه هذه الآراء والأفكار عن طريق الاحتكاك الذي يكون ليناً كما يكون عنيفاً ، ساراً أو مؤلماً ، وبهذا المعنى يصح أن نعتبر هذا العامل من أسباب توثيق أواصر الجماعات .

وقد كان الإفراط في النزعة الوطنية والعنصرية وما يترتب عليها من الأثرة وحب الانفراد بالعزة والسلطان وإنكار حقوق الآخرين ، ثم النزاع والتسلح والحرب [1] ، وقد جاء الإسلام ليقيم إخاءً بين الإنسانية جميعها بغض النظر عن جميع الاعتبارات المادية ومصالح الأثرة والأنانية .

يقول الأستاذ سيد قطب في كتابه : «هذا الدين» : «وجاء الإسلام ، فوجد الناس يتجمعون على آصرة النسب أو يتجمعون على آصرة الجنس ، أو يتجمعون على آصرة الأرض ، أو يتجمعون على آصرة المصالح والمنافع القريبة ، وكلها عصبيات لا علاقة لها بجوهر الإنسان ، إنما هي أعراض طارئة على جوهر الإنسان الكريم . وقال الإسلام كلمته الحاسمة في هذا الأمر الخطير الذي يحدد علاقات الناس بعضهم ببعض تحديداً أخيراً ، قال : إنه لا لون ولا جنس ولا نسب ولا أرض ولا مصالح ولا منافع هي التي تجمع بين الناس أو تفرق ، إنما هي العقيدة... إن آصرة المجتمع هي العقيدة ، لأن العقيدة هي أكرم خصائص الروح الإنساني ،

---

١ – عبد الرحمن عزام . الرسالة الخالدة ص ٢٠ .

١ – هذا الدين ص ٨٣ – ٨٤ .

فأما إذا نبتت هذه الوشيجة فلا آصرة ولا تجمع ولا كيان . إن الإنسانية يجب أن تتجمع على أكرم خصائصها لا على مثل ما تتجمع عليه البهائم من الكلأ والمرعى ، أو من الحدّ والسياج ...

والأمة هي المجموعة من الناس تربط بينها آصرة العقيدة وهي جنسيتها وإلا فلا أمة لأنه ليست هناك آصرة تجمعها ، والأرض والجنس واللغة والنسب والمصالح المادية القريبة لا تكفي واحدة منها ولا تكفي كلها لتكوين أمة إلا أن تربط بينها رابطة العقيدة».

وهكذا أعلن الإسلام ولأول مرة في تاريخ الإنسانية أن الأمة والدولة وسائر التجمعات الإنسانية لا يجوز أن تقوم إلا على أساس واحد يتناسب مع كرامة الإنسان وما ميزه الله به من قدرة على التفكير والتأمل ، فالعقيدة وحدها هي التي تفرق أو توحد بين الناس ، أما سائر العوامل الأخرى فلا يقر الإسلام بأنها جديرة أن تكون من أسباب التفرقة أو التوحيد .

إن البشر قاطبة من أصل واحد : «خَلَقَكُم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيراً ونساء »[1] وحقيقة الأجناس والقبائل تعود إلى هذا الأصل : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكـــر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم» فلا يصح أن يكون ما يظهر من اختلاف الشعوب والقبائل والأجناس سبباً للتباغض والتباحر وإنما يجب أن يكون وسيلة للتعارف والتعاون .

أما الأرض فهي لله يعمرها الإنسان بالخير ، والله تعالى يستخلف عليها من يشاء من عباده ويورثها من يشاء ، فلا يجوز للإنسان أن يتقيد ببقعة محدودة من الأرض يتخذها معبوداً له[2] ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : «ألم تَرَ أن الله سخّر

---

١ – النساء : ١ .

٢ – أبو الأعلى المودودي ، بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية .

لكم ما في الأرض»: [1] : «ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها» [2] ، فأرض الله للناس جميعاً ، وأرض المسلمين لجميع المسلمين لا توضع أمامهم الحواجز ولا تقوم بينهم الحدود .

ويهدي من هذا المبدأ الكريم ألغى الإسلام كل نوع من أنواع العصبية والتفاخر بالأرض أو بالنسب أو بالقبلية الجاهلية . يقول الله تعالى : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين» [3] ويقول الرسول ﷺ : «كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ولينتهينّ قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان» [4] وإذا كانت بعض القبائل والتجمعات العربية ما تزال تعيش على شعورها بالتمييز والتفوق العنصري فإن الرسول الكريم يضع الأمور في نصابها فيقول : «يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، ويا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ما أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد : سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً» [5]

ويعلن الرسول أنه ليس من الإسلام في شيء من دعا إلى عصبية «ليس منا من دعا إلى عصبية » ويصف العصبية الجاهلية بأقبح وصف داعياً إلى تركها والتخلي عنها بقوله : «دعوها فإنها منتنة» [6] ويزيد في تأكيد هذا المعنى موضحاً مبدأ الإسلام في وزن الأمور : «أنا أخو كلّ تقيّ ولو كان عبداً حبشياً ، وبريء من كل شقيّ ولو كان شريفاً قرشياً».

---

١ – الحج : ٦٥ .
٢ – النساء : ٩٧ .
٣ – التوبة : ٢٤ .
٤ – أبو بكر البزار في مسنده من حديث حذيفة .
٥ – متفق عليه .
٦ – مسلم في صحيحه من حديث جابر .

ومع أن العناصر الحاقدة على الإسلام آنذاك حاولت أن تثير العصبيات والنعرات القبلية بين الأوس والخزرج .. بين قريش وسائر القبائل .. بين العرب وغيرهم من الشعوب التي دخلت الإسلام وكان لها بلاء كبير فيه ، إلا أن تلك المؤامرات باء معظمها بالفشل واستمر المدّ الإسلامي الذي استطاع أن يصهر هذه الشعوب والعناصر جميعاً في بوتقة العقيدة وآصرة الرأي والمنهج والفكرة . وكان لليهود اليد الطولى في هذه المؤامرات في العصور الإسلامية الأولى .

وكلما ضعف أثر العقيدة الإسلامية في النفوس ، قلت الحصانة التي تكونت لدى المسلمين ضد هذه الانحرافات ، وكان البلاء الأكبر في نهاية عصر الدولة العثمانية ، إذ استطاعت الأفكار القومية التي ظهرت في أوروبا في القرن التاسع عشر أن تغزو العالم الإسلامي وأن تمزقه أشلاء متفرقة متناحرة يكيد بعضها للبعض الآخر ، حتى تمكن اليهود وأعداء العرب والإسلام من وضع أيديهم على معظم أقطار العالم الإسلامي .

وقد نقل الفكرة القومية إلى الدولة العثمانية جماعة الاتحاد والترقي وجمعية تركيا الفتاة ، وكان يهود سيلانيك من وراء قادة الاتحاد والترقي ، ونشروا بينهم النزعة الطورانية والدعوة إلى إحياء جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها ، والنظرة إلى الدين الإسلامي الذي انتشر على أيدي العرب وشريعته وثقافتـــه ولغته على أنه غريب وطارىء على القومية التركية وأن الأولى بهم أن يعودوا إلى وثنيتهم الأولى قبل اعتناق الإسلام [1] ، حتى أصبح المتحمسون منهم يحيطون الأتراك الطورانيين الوثنيين كهولاكو وجنكيز خان بهالة من التقديس والعبادة ويتسمون بأسمائهم ، وقد وجد جيش الملك حسين على جثة أخي القائد التركي في المدينة منشوراً أصدرته إحدى الجمعيات التركية الطورانية جاء فيه «إن هذه البدعة الخيالية المخيفة التي يسمونها الأمة الإسلامية التي ظلت إلى أمد طويل سداً يحول دون التقدم بوجه عام

---

١ – أبو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٩٩ .

ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص هي في طريقها الآن إلى التفكك والزوال» [1] .

وكان العرب المسلمون يبدون شكوكهم في جمعية الاتحاد والترقي وذلك لسببين جوهريين : «أولا لأن قادة جمعية الاتحاد والترقي وزعماءها كانوا جميعاً وبدون استثناء من البنائين الأحرار (الماسونيين) وثانياً : لأن يهود سالونيك كانوا جزءاً لا يتجزأ من جمعية الاتحاد والترقي» [2]

وقد أكملت العناصر اليهودية مؤامراتها بأن دفعت جماعة الاتحاد والترقي إلى تبني سياسة التتريك ، أي دمج جميع العناصر التي تشكل الدولة العثمانية في القومية التركية وفرض اللغة التركية عليها . والدولة العثمانية كما هو معلوم كانت تجمع قوميات متعددة وقد نشأت على أسس العقيدة ، والعقيدة وحدها التي تستطيع أن توحدها ، خاصة إذا علمنا أن الأتراك لم يكونوا يزيدون عن العرب في هذه الدولة الواسعة ، وكان هذان العنصران يشكلان جناحيها الخافقين ولم يكن يجمع بينهما إلى الإسلام .

وكان العربي يرى في الدولة العثمانية دولته ويرى في أمجادها وانتصاراتها أمجاداً له ومفاخر يتغنى بها ، وحتى بعد أن قامت دعوة التتريك وقف العرب موقف المشفق على هذه الدولة التي كانت تفرض احترامها على العالم أن تضيع وتتمزق ، وقد عبروا عن ذلك ببياناتهم ومؤتمراتهم واتصالاتهم التي كانوا يجرونها مع رجال الدولة .

لكن النافخين في النار من هنا وهناك ، والذين خططوا لتمزيق الدولة التي كانت — على ضعفها — ما تزال تمثل وحدة المسلمين وأملهم في استعادة قوتهم وكرامتهم أبوا إلا أن يسير الشوط إلى نهايته ، وهكذا نشأت القومية العربية ، ثم

---

١ — زين نور الدين زين ، نشوء القومية العربية ٩٠ .

٢ — المرجع السابق : ٨٦ .

تطورت إلى مثل ما تطورت اليه القومية الطورانية عند الأتراك [1] . وما دمنا قد فتحنا باب القومية على المسلمين فقد كان من الطبيعي أن تنتهي إلى ظهور القومية الكردية وغيرها ، إذ ما الذي يمنع غيرك من المطالبة بما منحته لنفسك ما دمت قد أوصدت عليه الباب الوحيد الذي كان يصله بك وهو الإسلام .

وقد شجع على ظهور القومية العربية في صورتها العلمانية عدد من الدول التي كانت تطمح إلى احتلال الشرق الإسلامي وعلى رأسها بريطانيا ، وفي مذكرات آغاخان فصل عن ضباط بريطانيا السياسيين الذين شجعوا الحركة القومية العربية للوقوف أمام فكرة الدولة الإسلامية .

أما لورنس منفذ سياسة بريطانيا آنذاك فيقول مصوراً ذلك الهدف في كتابه «أعمدة الحكمة» : «وأخذت طول الطريق أفكر في سوريا وفي الحج ، وأتساءل هل تغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية ، وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني ، وبمعنى أوضح هل تحل المثل العليا السياسية محل الوحي والإلهام وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني ، هذا ما كان يجول في خاطري طوال الطريق».

ومعلوم أن الثورة على الأتراك قامت بتأييد بريطانيا ودعمها الأدبي والمادي ، ودعم حليفتها فرنسا ، وقد ثبت أن عدداً من الزعماء كانوا متصلين بالقنصليات الأجنبية لتلقي هذا الدعم [2] .

---

١ – كان أول تنظيم لحركة القومية العربية على يد عدد من النصارى ، ثم اتصل هذا التنظيم بالماسونية ، ومعلوم ما بين الماسونية واليهود من اتفاق ، أنظر تفصيل ذلك في كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس ١٤٩ .

٢ – يذكر جورج أنطونيوس في كتابه يقظة العرب ما يلي : «كان بعض الأتراك قد داهموا قبل وصول جمال باشا دمشق بقليل القنصليتين الفرنسيتين في دمشق وبيروت وفتشوهما ، فعثروا على رسائل فيها اتهام لبعض الشخصيات العربية المعروفة ، وكانت هذه الوثائق تتضمن أدلة على ما بذلوا من نشاط لا فرق بينه وبين الخيانة ولكن جمال باشا الذي عقد العزم على أن يخلف في النفوس أثراً حسناً اكتفى بإخبار الشريف حسين بما عثر عليه ووضع تلك الأوراق في أحد الأدراج وأقفل عليها .

وليس معنى إنكارنا للمبادىء القومية والعنصرية أننا نقف أمام وحدة العرب أو تعاونهم وتمتين أواصر القربى فيما بينهم ، فقد كان للعرب فضلهم على الدنيا حين حملوا لها رسالة الإسلام ، وسيكون لهم هذا الفضل مرة أخرى إذا أقاموا وحدتهم على أساسه وعملوا — وهم مهيأون لذلك أكثر من غيرهم بفضل لغتهم العربية وتوسطهم في العالم — على الأخذ به والتبشير به مرة أخرى . فالعروبة لا تنفصل عن الإسلام ، والمسلمون جميعاً يقرون للعرب بالفضل ، ويرغبون في تعلم العربية لأنها لغة القرآن ، ويكرمون العرب لأنهم يتلون هذا القرآن .

كتب شاه ولي الله عالم دهلي المتوفي سنة ١٧٦٥م يقول : «نحن غرباء في هذه البلاد (أي الهند) فلقد جاء أجدادنا منذ القديم ليعيشوا هنا ، فالنسب العربي واللغة العربية هما موضع اعتزازنا وافتخارنا وبهما كان طريقنا إلى معرفة الله رب الأولين والآخرين ، ولمعرفة محمد أشرف الأنبياء والرسل ، وعلينا أن نشكر الله على سابغ رحمته علينا وذلك بالتمسك قدر استطاعتنا بعادات وتقاليد أجدادنا العرب ، فقد جاء من بينهم نبينا الكريم ، وإليهم توجه أول ما توجه في دعوته» [1]

لكن القومية وعاء يأخذ شكله مما يمتلىء به ، لذا كانت في ذاتها لا تعني شيئاً أكثر من اجتماع مجموعة من الناس تعتقد بصلة خاصة تربطها فيما بينها ، وهكذا أصبحت الدعوة القومية المجردة دعوة رجعية ، «وأصبح نوابغ الفكر الحديث والمفكرون الأحرار ينكرون عليها في صراحة وقوة ويدعون إلى الجامعة الإنسانية والرابطة العالمية» [2] وقد تأسس المعسكر الشيوعي على أساس عالمي ورفض القوميات وقام على مبدأ وعقيدة وشعار ، وتأسس مقابله ما يسمى بالعالم الديموقراطي ، وبدأنا نحن مع الأسف من حيث انتهت أوروبا ، وهكذا حال الأمة الضعيفة غير الواثقة من نفسها ، فقد ولّى عصر القوميات هناك وبدأ في شرقنا الإسلامي ، مع أن الإسلام أول دين يقيم العلاقات الإنسانية على أساس المبدأ والعقيدة .

---

١ — برنارد لويس ، الغرب والشرق الأوسط ، تعريب نبيل صبحي ص ١٥١ — ١٥٢ .

٢ — العرب والإسلام ، أبو الحسن الندوي ص ٩٤ .

هذا عن عالمية الإسلام ، أما شموله ؛ بمعنى شمول تنظيماته ومبادئه لجميع شؤون الإنسان والمجتمعات البشرية فإنه سيكون حديثنا حين تفصيلنا لنُظم الإسلام .

العبادة والعمل والمسؤولية

العبـــادة :

للعبادة في الإسلام وفي كل دين من الأديان الشأن الأول بين الفرائض والواجبات ، لأنها تؤكد إقرار المرء إقراراً كاملا بقلبه وجوارحه ، وخضوعه خضوعاً مطلقاً يطغى على كل خضوع ، لله الخالق الباقي من وراء كل وجود زائل .

لذلك نجد القرآن الكريم يحدد غاية الخلق بالعبادة ، غير مميز في هذا الخلق بين إنس وجن ، أو جماد وحياة ، فما من شيء في الوجود إلا ويسبح بحمده ويقدس له . يقول تعالى مشيراً إلى هذا المعنى : «وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون» [1]

وقد كانت الدعوة إلى عبادة الله دعوة الأنبياء جميعاً ، منذ شاء الله أن يبعث بالأنبياء والرسل إلى أن ختمت الرسالات والنبوات بمحمد عليه السلام : «ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله» [2] ، وكان الناس كثيراً ما يضلون عن هذه الغاية لدقتها وسموها ، والقدر الكبير من الوعي واليقظة الذي تحتاج إليه ، فينصرفون

---

١ ـ الذاريات ٥٦ .

٢ ـ النحل ٣٦ .

إلى عبادة الأشياء من دون الله ، كالحجارة والشجر والكواكب والناس ، أو يخضعون لهذه المخلوقات خضوع عبادة ورجاء أو يتخذون من أهوائهم وشهواتهم أرباباً لهم من دون الله [1] وهذا ما كان يتطلب توالي الأنبياء والرسل يذكرون الناس بهذه الحقيقة ، ويبينون لهم زيف ما يدعون من دون الله ، ويأخذون عليهم العهود والمواثيق أن لا يعبدوا سواه [2]

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنساني كما هي غاية كل وجود ، فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذي يرد إلى الذهن والذي يضيق نطاقها حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة التي يؤديها المؤمن ، إن حقيقة العبادة تبدو في معنيين ؛ أولهما عام والآخر خاص .

أما العبادة بالمعنى العام ، فإنها تعني السير في الحياة ابتغاء رضوان الله وفق شريعة الله ، فكل عمل يقصد به وجه الله تعالى والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله تعالى بإصلاح الأرض ومنع الفساد فيها يعد عبادة . وهكذا تتحول جميع أعمال الإنسان مهما حققت له من نفع دنيوي إلى عبادة إذا قصد بها رضاء الله . فمن زرع زرعاً أو غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة كتب له صدقة ، ومن سعى على عياله أو أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أو قال كلمة طيبة فهو صدقة إذا كان قد أخلص نيته لله .

قال كعب بن عجرة رضي الله عنه : مرّ على النبيّ ﷺ رجلٌ ذكر أصحابُه من جلده ونشاطه ما أعجبهم ، فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا في سبيل الله ،

---

١ – ذكر لنا القرآن الكريم أنواعاً متعددة عن هذه العبادات يمكن العودة إليها في الآيات والسور التالية : الأنعام ٥٦ ، مريم ٤٢ ، و ٤٤ ، المائدة ٧٦ ، العنكبوت ١٧ ، الشعراء ٧١ ، الزمر ٣ ، سبأ ٤١ .

٢ – يتضح لنا هذا المعنى إذا استعرضنا بعض آيات القرآن الكريم ، منها : « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله » ، البقرة ٨٣ ، « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » ، التوبة ٣١ ، « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » النساء ١٧٢ ، « يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً » ، مريم ٤٤ .

فقال : «إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان» [1]

وعن أبي ذرّ رضي الله عنه ، أن ناساً قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدّقون بفضل أموالهم ، قال : أوليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون به ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» [2]

بل إن الاكتفاء بالعبادة بالمعنى الخاص والاستغناء بها عن إقامة النظام الاجتماعي انحراف في مفهوم الإسلام [3] ، فقد روي أن النبي ﷺ رأى رجلا يتحامل على الناس فسأل عنه فقيل هذا عابدنا ، فقال عليه السلام ومَن يؤكله ، قالوا كلنا يؤكله ، فقال عليه السلام : كلكم خير منه . كما روي أن رجلا مثل هذا الرجل دخل على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسأل كما سأل رسول الله ﷺ فقالوا له أخوه ، فقال عمر أخوه أعبد منه» [4] ومن حديث الرسول عليه السلام : «إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصلي وأرقد ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء» [5]

والعبادة هي العبودية معنى وحقيقة وكل ما يأتي به العبد في طاعة معبوده فهو عبادة . وأما العبادة بالمعنى الخاص فهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان

---

١ — أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة ، والبيهقي من حديث أنس وابن عمر .

٢ — من صحيح مسلم .

٣ — محمد المبارك ، نظام الإسلام بحث العبادة .

٤ — محمد أبوزهرة ، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام صفحة ٩٨ .

٥ — رواه الشيخان والنسائي .

وحج البيت على المستطيع ، وهي نوع من التربية على العبادة الكاملة الحقة [1]

إن نوع العبادات بمعناها الخاص فرائض دينية يراد بها صلاح الفرد أو صلاح الجماعة أو صلاحهما معاً ، ويتحقق عن طريقها ارتفاع الجماعة عن صغائر الأمور وهموم الدنيا وخروجها من ضيق هذه الشواغل المحصورة ، كما يتعرف الناس بممارستها على غاية أرفع من هذه الغايات القريبة وميزان أقوم من ميزان المادة كلما استغرقتهم المنافع والأهواء . كما أن العبادة بهذا المعنى تنبه الإنسان على الدوام إلى وجوده الروحي الذي يجب أن يشغل بمطالب غير مطالبه الجسدية ، وتذكره بالوجود الخالد الباقي إلى جانب وجوده الزائل المحدود ، وأن عليه إذا أراد أن يعيش هذه الحياة أن يحيا حياة تمتد بآثارها إلى ما وراء معيشته اليومية [2] .

وقد أشار الأستاذ محمد أبو زهرة إلى أن العبادات تنتهي إلى نتيجتين : [3]

أولاهما : الاتجاه إلى تربية الوجدان الديني الذي يجعل المؤمن بالإسلام مؤتلفاً مع غيره ليتكون من هذا الائتلاف مجتمع إنساني متواد متحاب .

والثانية : أن غاية العبادات في الإسلام ليست مجرد التقوى السلبية ، لأنها تتجه إلى النفع الإنساني في العالم ، وإلى إيجاد مجتمع متحاب غير متباغض ولا متنازع ، فعلامة الإخلاص لله فيها أن تكون مطهرة للقلب قاضية على الشر فيه ، مؤلفة بينه وبين الناس من غير مراءاة ولا مغالاة .

ومن أهم ما تمتاز به العبادات الإسلامية أنها خالصة لله وحده ، فالمتعبد لا يتوجه بعبادته لنبي أو غيره ، وإنما يتوجه بها للذي فطر السموات والأرض ، وهي صلة مباشرة بين الإنسان وربه لا تحتاج إلى واسطة أو وسيلة ، ويمثلها بصورة واضحة دخول المصلي محرابه للصلاة فهو يدخل على الله دون إذن أو بواب ،

---

١ – المودودي ، مبادىء الإسلام صفحة ٩٤ .
٢ – عباس العقاد ، حقائق الإسلام صفحة ١٠٨ .
٣ – المجتمع الإنساني في ظل الإسلام صفحة ٩٦ – ٩٧ .

ويكلمه دون ترجمان ، وهي تجمع بين حضور القلب وتوجه الجوارح لما في الإنسان من فطرة مزدوجة مادية وروحية ، وأخيراً فهي – لأنها تعبير عن الخضوع لله ومظهر له – توقيفية تؤدى كما وردت في الشريعة دون زيادة أو نقصان ،[1] وليس معنى كونها توقيفية أنها لا تعلل بعلة ولا يعرف لها أسباب تدعو إليها وتفسر لنا اتباعها دون غيرها ، وإنما يقصد أنها في نهاية الأمر أوضاع توقيفية لا موجب من العقل للتحكم فيها بالاقتراح والتعديل لأن المقترح المعدل لن يستند إلى حجة أقوى من الحجة التي يرفضها أو يميل إلى سواها [2]

إن الصلاة رأس العبادات الإسلامية ، وهي في حقيقتها حضور مع الله تعالى ومناجاة له ، وقد قيل في هذا المعنى : «يا ابن آدم إذا أردت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بغير ترجمان فعلت ، قيل وكيف ذلك ؟ قال : تسبغ وضوءك وتدخل محرابك ، فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن ، فكلمه بغير ترجمان ».

والإنسان في صلاته يستقبل النهار ويتوسطه مرتين ، ثم يختمه ، ويستقبل بليل بالوقوف بين يدي الله ، كأنه يستهديه في عمله ويؤدي إليه الحساب عن هذا العمل من ساعة اليقظة إلى الساعة التي يستسلم فيها للرقاد ، فهو يبتدىء يومه للصلاة الفجر التي يستحضر فيها عظمة الله وجبروته فيشرق النور في قلبه ويقدم على العمل بقلب سليم ويتعامل مع الناس بتلك النفس الطاهرة ، حتى إذا أخذ القلب يصدأ أو تعتريه الغفلة عن ذكر الله كانت صلاة الظهيرة ثم صلاة الأصيل ثم صلاة العشاء ، ثم يختم يومه بذكر الله تعالى كما ابتدأه به . [3]

وتُسبق الصلاة بطهارة اليدين والأطراف وفي ذلك تذكير بجوهر الصلاة من حيث هي تطهير للقلب ، وهي لا تقتصر على الذكر والدعاء والتلاوة ، وإنما

---

١ – للأستاذ محمد المبارك بحث قيم عن خصائص العبادة في الإسلام في كتابه : « نظام الإسلام » .

٢ – حقائق الإسلام ، للعقاد صفحة ١٠٤ .

٣ – محمد أبو زهرة ، المرجع السابق صفحة ٩١ .

يرافق هذا كله حركات جسمية كالركوع والسجود والقيام، وذلك حتى تتأكد معاني الخضوع لله والتعظيم والتقديس له ، فقد خضع له القلب كما خضعت الجوارح وعظمه اللسان كما عظمه الوجدان ، وكل ذلك يؤكد أن حضور القلب شرط أساسي في إقامة الصلاة وإنما يكتب للمرء من صلاته ما عقل منها ، وإذا لم يكن في الصلاة تذكير بالله ولا تأمل ولا تفهم لم تكن مقبولة وإنما يذم صاحبها ، لذلك قال تعالى : «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون» [1]

وتيسيراً لهذه العبادة الأساسية التي هي عمود الإسلام وركنه الأصيل، فقد جعل الله الأرض كلها مسجداً وطهوراً يقيم فيها المسلم صلاته ويتوجه إلى خالقه ، كما جعلها وسائر العبادات الأخرى في غير حاجة إلى وساطة رجال يكونون بين الإنسان وبين ربه ، فحين يحضر وقت الصلاة يؤديها المسلم في المكان الذي يشاء ، ويؤم المسلمين فيها أقرؤهم أو أعلمهم أو أفقههم ، وإذا تساووا ، أمّهم أي واحد منهم ما دام يحسن الصلاة ويعرف كيفيتها .

وقد أكد الإسلام تأكيداً شديداً على أداء فريضة الصلاة في جماعة ، وافترض عليهم أن يؤدوا صلاة الجمعة في كل أسبوع بالجماعة على وجه خاص ، ذلك لأن الصلاة جماعة تنشيء الاتحاد والمحبة والإخاء بين المسلمين ، وتجعل منهم كتلة متراصة لأنهم عندما يجتمعون ويقنتون لربهم ويسجدون له ويركعون معاً تأتلف قلوبهم وينشأ فيهم الشعور بالأخوة «ثم إن الصلاة في جماعة تدربهم على طاعة أمير ينتخبونه من بين أنفسهم وتربيهم على النظام والانضباط والمحافظة على الأوقات ، وتنشيء فيهم المواساة والتراحم والمساواة والائتلاف فتراهم جميعاً غنيهم وفقيرهم وكبيرهم وصغيرهم وأعلاهم وأدناهم يقومون جنباً إلى جنب يذكرون رباً واحداً ويدينون بالعبودية للإله الكامل .

وعبادة الصوم تؤدي دورها في تربية الوجدان وتهذيب النفس، فهو شهر

---

١ – الماعون : ٤ – ٧ .

الرياضة الروحي والتجرد من اللذات والشهوات طوال نهار ذلك الشهر وطرفاً من الليل . ولا يقتصر معنى الصوم على التخلي عن شهوات الجسد : وإنما يشمل كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، أضف إلى ذلك صوم القلب عن الهمم الدنيئة والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل .

إن المسلم في صيامه يذكر حق الروح من شرابه وطعامه ، ويذكر أنه ذو إرادة تأخذ بيديها زمام جسدها ولا تترك لهذا الجسد أن يأخذ بزمامها ويتصرف على هواه ، ولا شك أن من ورائه خشية الله تعالى ، واليقين بكونه خبيراً بصيراً ، والإيمان باليوم الآخر ، والحضور في محكمة الله ، والطاعة الشديدة للقرآن والرسول .

أما عبادة الزكاة فهي المذكر للإنسان بحصة الجماعة من ماله الذي يكسبه بكده وعمله وهي المذكر له بأن يعمل لغيره كما يفعل لنفسه وهي الامتحان فيما تهوى الأنفس من المال والمتاع ، إن الزكاة عبادة روحية يتقرب بها العبد إلى الله تعالى ويستحق بإعطائها مختاراً محتسباً النية راجياً بها أن تكون غنماً له لا غرماً عليه ، وهي من ناحية أخرى فريضة شرعية تجبى كما تجبى الضرائب الأخرى يحاسب عليها حساباً مادياً دنيوياً ، وقد قرنت الزكاة في معظم الآيات بالصلاة تأكيداً على المعاني الجليلة التي جاءت لتقيمها في حياة المسلمين ، فعن طريق أدائها يتحلى المسلمون بأوصاف التضحية والإيثار وتزول من قلوبهم الأثرة وحب الذات وضيق الصدر وعبودية المال ، إن الإسلام لا يحتاج الى البخيل الشحيح الذي يعبد المال ويتكالب عليه ، وإنما يحتاج إلى الإنسان المستقيم الذي يضحي في سبيل الله بماله الذي اكتسبه بعرق جبينه دون أدنى غرض ذاتي ، ولا شك أن الزكاة تروض المسلم على هذه التضحية وتجعله يقبل على إنفاق ماله إذا بلغ الأمر مبلغ الجد بكل انشراح وطيب خاطر منه .

وإذا كان الإسلام ديناً يدعو الناس كافة إلى عبادة رب العالمين ، فالحج هو الفريضة التي تتمثل فيها هذه الأخوة الإنسانية على تباعد الديار واختلاف الشعوب والأجناس . والحج عبادة بدنية ومالية ، يذهب المسلمون فيه من كل فج

عميق إلى بيت الله تعالى ، ويشعرون أنهم في ضيافته ، متخلفين عن الأهل والمال والولد وجميع مظاهر الترف والرفاه ، ويلتقون على مائدته الروحية على تقوى من الله ورضوان . ومن معالم الوحدة الإنسانية التي يتمثلها المسلمون في موسم الحج أنهم يشاهدون آثار أبي الأنبياء ابراهيم عليه السلام فيشعرون بوحدة العبادة في الأديان السماوية كلها ، ويحسون بأصل الإنسان المشترك ويتحققون بالمساواة المطلقة من غير تفرقة بين الأقاليم والأجناس . والحج بالإضافة إلى ذلك ذكر دائم لله في أشهر معلومات وذكر الله دواء القلوب وقرار النفوس الخائفة المستجيرة بالله.

هذا ويمكن أن يعتبر من العبادات المخصوصة ، التأمل والتدبر في آيات الله ومخلوقاته ، وذكر الله ، وتلاوة القرآن ، والدعاء ، والاستغفار ، وتذكر الشهادتين ومعناهما ، فكلها تؤدي واجبها في تذكير الإنسان بوجوده الروحي وتذكيره بوجود أسمى من وجوده وأبقى .

* * *

العمـــل :

والعمل نوع من العبادة بمعناها العام كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فقد خلق الله الإنسان ليعمر هذه الأرض بالخير وللخير ، ويسرّ له بناء هذا الكون ، واستخلاص ما فيه من كنوز وخيرات .

ويرتبط العمل في الإسلام بنتيجته التي يجب أن تترتب عليه ، وهي شكر الله واستغفاره ، وتذكر المسؤولية الكاملة عن عمله في هذه الدنيا . يقول الله تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب» [1] فقد نشأ الإنسان من هذه الأرض التي أوكل الله إليه عمارتها وتحري سبل الخير فيها ، لذا كان عليه أن يتذكر هذا المعنى على الدوام بالاستغفار والتوبة مع الاعتقاد الجازم باستجابة الله لكل توبة نصوحة أو عمل خالص .

وقد اقتضت سنة الله في الخلق ، أن لا ينال الإنسان شيئاً مما على الأرض أو

---

١ – هود ٦١ .

ما في باطنها من نعم وأرزاق وأقوات إلا بجهد يبذل وعمل يؤدى : «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه»، فمن مشى أكل ومن كان قادراً على المشي ولم يمش كان جديراً ألا يأكل .

وقد قيل لأحمد بن حنبل ما تقول فيمن جلس في بيته أو في المسجد وقال لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي ، فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي ﷺ «جعل رزقي تحت ظل رمحي» [1] وقوله حين ذكر الطير : تغدو خماصاً وتروح بطاناً [2] فذكر أنها تغدو في طلب الرزق ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخيلهم ، والقدوة بهم» [3]

وروي أن عمر رأى بعد الصلاة قوماً قابعين في المسجد بدعوى التوكل على الله فعلاهم بدرته وقال كلمته الشهيرة : «ولا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، وإن الله تعالى يقول : «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» [4]

إن الله تعالى خلق هذا العالم على نظام وتقدير وترتيب ، وهو يحتاج إلى عقل الإنسان يعمله في الوقوف على نواميس هذا الكون وقواعده ، لأنها مفاتيح مغاليقه ووسائل الاستفادة منه ، ثم هو يحتاج إلى عمله ليكمل دائرة الفائدة ، وحين يقصر الإنسان في استخدام هذه الطاقات التي أمده الله بها ، أو يقعد عن القيام بدوره الصحيح في هذا الكون ، فهو مخالف لحكمة الله من خلقه مجانب لأوامر الله تعالى ، على عكس من يبذل جهده ويستنفد طاقته فانه جدير به أن ينال رضى الله وغفرانه : «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً» [5]

---

١ – رواه أحمد من حديث ابن عمر .

٢ – الحديث : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » استدل به بعض المتواكلين على عدم جدوى العمل مع أن ذلك يخالف منطوق الحديث .

٣ – يوسف القرضاوي ، مشكلة الفقر وحلها في الإسلام صفحة ٤٦ – ٤٧ .

٤ – الجمعة ١٠ .

٥ – الكهف ١١٠ .

ومن أجل ذلك كان واجباً على المسلمين أن يسلكوا جميع السبل التي تتيح لهم الوقوف على أسرار هذا الكون وتحقيق منفعة الإنسان من هذه الأسرار ، وليس ذلك فحسب ، بل واجب على المسلمين أن يكونوا الرواد في هذا الميدان كما كانوا الرواد في دعوة الناس إلى الإيمان بالله والعبودية له والتخلق بالأخلاق الكريمة ، ويأثم المسلمون حين يكون عند غيرهم علم نافع أو مهنة مفيدة يجهلونها هم ،ومن هنا كان العمل نوعاً من العبادة والقربى إلى الله يؤديها المسلم بكل إخلاص كما يؤدي صلاته بكل تبتل وخشوع .

ولا يترك العمل بحجة الانقطاع الكامل لعبادة الله لإن سعي الإنسان نوع من الجهاد في سبيل الله : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله » [1] كما لا يترك بدعوى احتقاره والاستهانة به فقد رفع الإسلام من قيمة العمل أياً كان نوعه وحقر من شأن البطالة والاتكال على الآخرين ، ولحكمة عظيمة كان الأنبياء جميعاً يعملون : « ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم ، قالوا : وأنت يا رسول الله ، قال كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » [2] وقال رسول الله ﷺ : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » [3] وهكذا كان شأن أئمة الإسلام وأعلامه ، فقد كان منهم البزاز والقفال والزجاج والخراز والخصاص والحواص والصبان والقطان ... وغيرهم من الفقهاء والمؤلفين والعلماء المتبحرين في شتى جوانب الثقافة الإسلامية [4] .

إن التواكل والقعود عن السعي خلق يأباه الإسلام للمسلمين ، لأنه عدا عن كونه يتعارض مع قواعد الإسلام العامة في معنى العبادة ، فإنه يحجب

---

١ – المزمل ٢٠

٢ – رواه البخاري .

٣ – رواه البخاري .

٤ – يوسف القرضاوي ، مشكلة الفقر ٥١ .

المسلمين عن مكان الصدارة في هذا العالم ، فقد أريد للأمة الإسلامية أن تكون الأمة الممتازة في تقديرها لحقيقتها وتقويمها لنفسها ومكانتها بين الأمم ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، والشهادة هنا عامة شاملة لا تقتصر على جانب من جوانب الحياة أو نوع من أنواع السلوك .

وهذه بعض الآيات التي تؤكد الأهمية الكبيرة التي يرتبها القرآن على العمل :

« مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[1] .

« ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى »[2] .

« ومن أحسن قولا ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين »[3] .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً »[4] .

« ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير، وألنّا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدّر في السّرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير »[5] .

« فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً »[6] .

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى »[7] .

« إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »[8] .

• • •

---

١ – النحل ٩٧ .
٢ – طه ٧٥ .
٣ – فصلت ٣٣ .
٤ – الكهف ٣٠ .
٥ – سبأ ١٠ – ١١
٦ – الكهف ١١٠ .
٧ – آل عمران ١٩٥ .
٨ – فاطر ١٠ .

المسؤوليـــة :

إذا كان للمناطقة أن يعرّفوا الانسان — مقدرين مزاياه العقلية — بأنه حيوان ناطق ، أو جاز للاجتماعيين أن يعرّفوه — مؤكدين على جانب علاقاته الاجتماعية — بأنه حيوان مدني بالطبع ، فإنه يمكن تعريف الإنسان من وجهة نظر الشريعة بأنه الكائن المكلف ، لأنه من بين سائر المخلوقات التي تعيش على وجه الأرض مناط التكليف والمسؤولية . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التكليف بقوله : «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » [1] .

وقد كان الإنسان مكلفاً لسبب رئيسي ، هو أنه الوحيد بين هذه الكائنات الذي يملك إرادة حرة يستطيع بها أن يختار طريقه ضمن نطاق السنن والقوانين والأقدار التي أحيط بها . فالجماد يطيع إطاعة آلية دون إرادة أو اختيار خاضعاً للقوانين والسنن التي وضعها الله ، أما الحيوان فإنه محكوم بغرائزه التي ركبها الله فيه ولا يستطيع الخروج على قواعد هذه الغريزة المسيطرة .

إلا أن الإنسان خُصّ بطبيعة أخرى ، ذلك أنه تعالى جعله في بعض جوانب حياته خاضعاً لسنن الكون لا يستطيع الخروج عنها « إذ تنطبق عليه قوانين الجو الذي يعيش فيه بالضغط الجوي وقوانين الجسم من الهضم والدورة الدموية وقوانين الحرارة والضوء وغيرها من هذه السنة الكونية ، ولكنه من جهة أخرى خلق له قدرة وإرادة حرة مختارة تختار ما تريد من الأفعال والتصرفات دون إجبار أو إكراه » [2] ووجود هذه الإرادة هي التي ترتب مسؤولية الإنسان عن جميع أعماله التي يكسبها بنفسه ، وارتفاع الإنسان وهبوطه منوطان بالتكليف وقوامه الحرية والمسؤولية ، فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليفة ، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين . والمسؤولية التي تترتب على الإنســـان مسؤولية

---

١ — الأحزاب ٧٢ .

٢ — نظام الإسلام : العقيدة والعبادة ٨٢ .

فردية ، فليس من العدل أن يتحمل امرؤ نتائج خطيئة لم يرتكبها ، ولا من العدل أن يثاب إنسان بحسنات الآخرين ، وإليك بعض الآيات الكريمة التي تشير إلى هذا المعنى :

« أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفّى ، ألاّ تزر وازرة وزر أخرى »[1] .

« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار »[2]

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا »[3]

« ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلَمون »[4]

« لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »[5]

« ووُفيَّت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »[6]

« اليَوْمَ تُجزَى كل نفس ما كسبت ، لا ظلم اليوم »[7]

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون »[8]

وما دام حديثنا عن التكليف والمسؤولية فإن مسألة القدر لا بد أن تجابه الباحثين ، لأنها قضية الإنسان الكبرى في علاقته الأبدية بالكون ، كما أنها مسألة الحرية الإنسانية والإرادة المختارة ، وقد بدأ الإنسان بالحديث عنها منذ أن

١ — النجم ٣٦— ٣٨ .
٢ — البقرة ٨١ .
٣ — المائدة ٣٨ .
٤ — البقرة ٢٨١ .
٥ — البقرة ٢٨٦ .
٦ — آل عمران ٢٥ .
٧ — غافر ١٧ .
٨ — البقرة ١٣٤ .

اكتشف نفسه ، وستبقى حتى نهاية الزمان ، ولم تواجهها عقيدة بأفضل مما واجهها به الإسلام [1] .

فقد كان الهنود يعتقدون أن للقدر الحكم الأول والأخير في جميع المخلوقات : الناس والأحياء والنبات والجماد ، [2] أما المجوس فقد آمنوا بانقسام الوجود بين إله النور وإله الظلام ، فكل ما غلب عليه إله النور فهو خير وكل ما غلب عليه إله الظلام فهو شر ، ولا عاصم لإله النور نفسه من غلبة الشر عليه في تلك الحرب الدائمة ، واعتقد اليونان بغلبة القدر على العباد والمعبودين ، وفي عقيدة الشعب المختار عند اليهود تأكيد لغلبة حكم القدر باختيار الإله لشعب يؤثره على سائر الشعوب وذرية يؤثرها على سائر الذريات بغض النظر عن كسب الناس وأفعالهم .

أما في المسيحية ، القائمة عند المسيحيين ، فإن عقيدة الخطيئة أبلغ دلالة على تغلب حكم القدر ، فقد ربطت هذه العقيدة بين خطيئة آدم وقضاء الموت — أو الهلاك الروحي — عليه وعلى أبنائه [3] .

ومذهب الواقعيين من الفلاسفة أن الإنسان يملك الإرادة التي تختار ، لكن هذه الإرادة مقيدة بتكوين الإنسان الوراثي والجسمي والاجتماعي ، فهي تولد معه دون اختياره ، وهكذا فإنه يفعل كما يريد ، لكنه لا يريد كما يريد . بينما يرى الروحيون من الفلاسفة أن جسد الإنسان خاضع لأحكام المادة كسائر الأجساد ، وأن روحه طليقة مختار يخضع لجسده في أمور ويخضع هو جسده في أمور أخرى .

---

١ — العقاد ، حقائق الإسلام صفحة ٨١ .

٢ — يقول الله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » « وكل شيء عنده بمقدار » « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » ، وهكذا يمكن تفسير القدر بأنه سير الكون على نظام معين ووفقاً لسنن معينة في تقديراتها الكمية والكيفية .

٣ — العقاد ، المرجع السابق ٨٢ — ٨٣ .

وكل هذه العقائد والمذاهب لا تحل مشكلة القدر على الوجه الذي تطمئن إليه القلوب والعقول كما يفعل الإسلام ، إذ أن العقل مع الإيمان بوجود الله لا يستطيع أن ينكر قدرته وحكمته وعدله في إجراء هذه الحكمة والقدرة ، كما أن العقل لا يستطيع أن يعتقد بأن الإنسان المكاف والحجر الجامد سواء في الاختيار ، وإنما تبرز المشكلة عندما يحتاج الإنسان إلى التوفيق بين قدرة الله وعدله فيما يصيبه من ألم الجزاء وعذاب الندم ، ولا يحل هذه المشكلة إلا أن نتذكر أن العدل الإلهي لا تحيط به النظرة الواحدة إلى حالة واحدة .

إن البقعة السوداء في الصورة الجميلة ـ كما يقول الأستاذ العقاد[1] ـ وصمة قبيحة إذا حجبنا الصورة ونظرنا إلى تلك البقعة بمعزل عنها ، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون في الصورة كلها لوناً من ألوانها التي لا غنى عنها أو التي تضاف إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها . ونحن في حياتنا القريبة قد نبكي لحادث يصيبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته .

فالنظر إلى الكون في ألف سنة ، يكشف لنا من دلائل التوفيق بين القدرة الإلهية والعدل الإلهي ، ما لا تكشفه النظرة إليه في سنة واحدة . وندع القول عن النظرة للحادث الواحد في الناحية الواحدة من حياة فرد معين من أفراد الأمم الإنسانية .

وعلى هذا النحو نقول إننا نقترب من التوفيق بين القدرة الإلهية والعدل الإلهي ، ولا نقول إننا نحيط بدلائل هذا التوفيق جميعها ، فإن الإحاطة بدلائل الحكمة الإلهية أمر غير معقول في حكم العقل نفسه إذا كان العقل المحدود لا يحيط بالقدرة التي ليست لها حدود » .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم ما ورد في القرآن الكريم من آيات تتحدث عن قدرة الله وحرية الإنسان وعدل الله في إجراء قدرته ومحاسبة الإنسان على حريته :

---

١ ـ حقائق الإسلام ٨٦ .

« وما تشآؤن إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليماً حكيماً » [1]

« ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها » [2]

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » [3]

« كل امرىء بما كسب رهين » [4]

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » [5]

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ؛ ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » [6] .

---

١ — الإنسان ٣٠ .
٢ — السجدة ١٣ .
٣ — الأنفال ٥٣ .
٤ — الطور ٢١
٥ — العنكبوت ٦٩ .
٦ — آل عمران ١٤٥ .